الملاك

مجموعة قصصية

obeikandl.com

ليو تولستوي

دار المحرر الأدبي

لِيو تولْستوي

(١٨٢٨ ـ ١٩١٠م)

كاتب روسي يُعد من أشهر الكتاب في العالم في مجال الأدب. تناول في كتاباته الأدبية مواضيع أخلاقية ودينية واجتماعية. وكان مفكراً عميق التفكير. التحق بجامعة كازان عام ١٨٤٤م، ولكن طريقة التدريس لم تعجبه فهجرها إلى الأعمال الحرة عام ١٨٤٧م. وبدأ بتثقيف نفسه، وشرع في الكتابة.

وفي تلك المرحلة الأولى من حياته كتب ثلاثة كتب وهي الطفولة (١٨٥٢م)؛ الصبا (١٨٥٤م)؛ الشباب (١٨٥٧م). وسئم حياته تلك فالتحق بالجيش وشارك في بعض المعارك وكتب عن تجاربه تلك موضوعات نُشرت في

الصحف، وألَّف عنها كتابه القوقاز (١٨٦٣م).

وبعد تقاعده من الخدمة العسكرية سافر إلى أوروبا الغربية وأعجب بطرق التدريس هناك. ولما عاد لمسقط رأسه بدأ في تطبيق النظريات التربوية التقدمية التي عرفها، وذلك بأن فتح مدرسة خاصة لأبناء المزارعين. وأنشأ مجلة تربوية تدعى ياسنايا بوليانا شرح فيها أفكاره التربوية ونشرها بين الناس.

ويُعد كتاب الحرب والسلام (١٨٦٩م) من أشهر أعمال تولستوي، ويتناول هذا الكتاب مراحل الحياة المختلفة، كما يصف الحوادث السياسية والعسكرية التي حدثت في أوروبا في الفترة مابين ١٨٠٥ و١٨٢٠م. وتناول غزو نابليون لروسيا عام ١٨١٢م.

ومن أشهر كتبه أيضًا أنَّا كارنينا الذي عالج فيه قضايا اجتماعية وأخلاقية وفلسفية في شكل مأساة غرامية كانت بطلتها هي أنَّا كارنينا.

وقد تعمق تولستوي في القراءات الدينية، وقاوم الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، ودعا للسلام وعدم الاستغلال، وعارض القوة والعنف في شتى صورهما. ولم تقبل الكنيسة آراء تولستوي التي انتشرت في سرعة، فكفرته وأبعدته عنها. وأُعجب بآرائه عدد كبير من الناس وكانوا يزورونه في مقره بعد أن عاش حياة المزارعين البسطاء تاركًا عائلته الثرية المترفة. ومن كتب تولستوي المشهورة أيضًا كتاب ماالفن؟. وأوضح فيه أن الفن ينبغي أن يُوجِّه الناس أخلاقيًا، وأن يعمل على تحسين أوضاعهم، ولابد أن يكون الفن بسيطًا يخاطب عامة الناس.

وفي أواخر حياته عاد تولستوي لكتابة القصص الخيالية فكتب موت إيفان إيلييتش (١٨٨٦م)، كما كتب بعض الأعمال المسرحية مثل قوة الظلام (١٨٨٨م). وأشهر أعماله التي كتبها في أواخر حياته كانت البعث وهي قصة كتبها (١٨٩٩م) وتليها في الشهرة قصة الشيطان (١٨٨٩م)؛ كريوتزسوناتا (١٨٩١م)؛ الحاج مراد التي نُشرت بعد وفاته والتي توضح عمق معرفته بعلم النفس، ومهارته في الكتابة الأدبية. وقد اتصفت كل أعماله بالجدية والعمق وبالطرافة والجمال.

obeikandl.com

الملاك...

كان الاسكاف (سيمون) يعيش مع زوجته، وأبنائه في شظف من العيش يسكنون كوخا صغيرا مغبرا، بأجر من المال يؤدونه لصاحبه الفلاح. . . وكان سيمون يكسب رزقه من عمله في جهد وجحد، وينفق كل ما تمسكه أنامله من دراهم على إطعام عائلته، وما أندر الخبر في ذلك الحين!

وكان للرجل وزوجته مدرعة من صوف يرتديها كل منهما حينا في الشتاء، حتى رثّت وبليت، وقد تقّضى عام وهو عازم على شراء مدرعة أخرى، فما أن أقبل الشتاء، حتى أمكنه أن يقتصد بعضا من المال: ثلاث (روبلات) وخمس (روبلات) وعشرين (كوبك) يدين بها بعضا من زبائنه!

وتهيأ ذات يوم ليؤم القرية، فارتدى (مطرف) زوجته على قميصه، ثم لبس ثيابه الأخرى فوق ذلك، ووضع الثلاث (روبلات) في جيبه، واقتطع لنفسه عصا يتوكأ عليها، واتخذ سبيله إلى القرية بعد أن أفطر. . .

وفي طريقه راح يحدث نفسه: (سوف أحصل على الخمس (روبلات) وأضيفها إلى الثلاث (روبلات) فيصير ما معي كافيا لشراء مقدار من الصوف لمدرعة الشتاء!)

ولما بلغ القرية بعد لأي طرق باب أحد الفلاحين فلم يجده بالدار، ووعدته زوجة الفلاح أن النقود سوف تصله في الأسبوع القادم! وطرق (سيمون) باب فلاح آخر، فأقسم له هذا أن يديه صفر من المال، وسيدفع له كل ما معه (عشرين كوبك) قيمة إصلاح حذاء قام سيمون برتقه!

فحاول (سيمون) أن يشتري (صوف المدرعة) بما معه، وبقرض يؤديه بعد حين، فرفض البائع قائلا في صوت ساخر؛ (إيتني بالمال، وسوف يكون لك ما توده من الصوف، فإنا نعلم كيف يحصل المرء على دينه!)

فأحس سيمون بالخور يسري في جسده، والقنوط يتسرب إلى فؤاده، فقام إلى حانة حيث نهل كأسا من الخمر بعشرين (كوبك)، وقفل راجعا إلى داره!

كان للخمر أثرها في سيمون، فسرى الدفء في عروقه، وزادت من قوته ونشاطه. فراح يفكر: (إني أحس بجوانحي تختلج دفئا وحرارة، مع أني لست مرتديا مدرعة من الصوف، لقد تناولت قطرة من الخمر فكان لها أثر النار تسري حرارتها في عروقي، فلست

بحاجة لمدرعة من الصوف أقي بها زمهرير الشتاء!!)

ليت زوجتي ترتشف قليلا من الخمر. فتحس ما أحس!! صه... ويلك... أتود أيها الرجل أن تقضي عليك زوجتك إن خبرتها أنك تناولت بعضا من الخمر... إنها سوف تحطم الآنية على رأسك الفاضل..! يا له من سائل عجيب يدفع النشوة إلى الروح والحرارة إلى الجسم!!. لست أبالي شيئا... ولكن زوجتي سوف تكتئب ويؤلمها أني عدت دون صوف المدرعة!. ليس علي من جناح!!... فقد طلبت حقي فأنكره واحد. وأعطاني الآخر عشرين (كوب)... هه... وماذا أنا فاعل بها..؟! لست أدري غير أن أشرب بها... إن الواحد من هؤلاء يملك الأرض والدور والحيوان... ثم يبخل علي بحقي الذي

أعمل سحابة يومي وجنحا من ليلي كي أظفر به . . . فإذا ما انتهيت أنكروه علي يا للعار . إن الواحد منهم لينعم بالدقيق والطعام أما أنا فأنفق ثلاث (روبلات) كل أسبوع للخبز وحده . . . فإذا ما عدت إلى الدار وجدت الخبز قد أكل فأبيت على الطوى ! . وهل أملك غير ذلك؟ ! ومن أين آتي بالنقود؟ ! أمن (هؤلاء) الناس الذين لا يقيمون عن الطعام إلا وقد أصيبوا باللظة . ! !)

كانت تلك الأفكار والخواطر تضطرب بين جوانحه . حين أدرك ـ في سيره ـ الكنيسة في منعطف الطريق . فرأى جسدا كالثلج في نصاعته ! . فراح ينعم النظر دون أن يتحققه أيكون ثورا ! . لا ليس شبيها بالثور . ! إن له رأسا يشبه رأس لإنسان ! بيد أنه ناصع البياض ! . . .)

واقترب منه حتى أمكنه أن يجتلي الأمر! .
وكم كانت دهشته حين أدرك أنه إنسان عار. .
يجلس إزاء الكنيسة في سكون يدفع الرهبة إلى القلب. . . فطار فؤاده هلعا، وتلبسه الخوف فزعا: (لا بد أن أحدا قد قتله. . وخلفه هنا. سوف أمسك عليّ فضولي أو أصاب بأذى.)

وأنطلق في سبيله ولكن التفت إلى ما وراءه فرأى الرجل الجالس ينظر إليه. . . فراع ذلك سيمون وزاد من جزعه. (أأعود إليه أم أنطلق؟! إن أنا عدت إليه فسوف يحدث مالا يرضيني. بل يجلب الضر إلى نفسي فما وجدت ثمت إلا لسوء. . . ولعله يثب علي ويخنقني. وحينئذ لا تنفعك رحمتك ولا تشفع لك شفقتك. . . وماذا أنا فاعل بإنسان عار؟!

لست بمستطيع أن أخلع عليه ما لا أملكه. دعه فللسماء شأن معه!) وأسرع سيمون في

خطاه لا يلوي على شيء. بيد أن ضميره أخذ يؤنبه. فتوقفت خطاه. وأخذ يهمس في حيرة ويهمهم في وجل: (ماذا أنت فاعل يا سيمون؟! هب أن الرجل يلفظ آخر نفسه!. ألا تتقي الله في فرارك منه ورغبتك عن عونه!! أأنت في وفر من المال حتى تخشى أن تسرق؟! يا للعار يا سيمون.!) فانقلب آيبا إلى الرجل ونفسه مضطربة وقلبه يخفق..

دنا سيمون من الرجل الغريب، وراح يجيل الطرف فيه. فرآه شابا على جمال وحسن! وليس على جسده أثر لجرح أو شج وقد جلس ثم معتمدا ظهره إلى جدار الكنيسة لا يرفع طرفه إلى سيمون من الوهن والضعف. فلما أحس بسيمون رفع رأسه إليه، وألقى إليه بنظرة. كانت كافية لأن تستدر كل ما يختلج بين جوانح سيمون من عطف ورفق وحب.

فخلع حذاءه. وألقى عن نفسه رداءه. وقال في صوت خفيض فيه حنان وفيه رأفة: (ليس ثمة مجال للحديث!!. هيا ارتد هذا الثوب.) وأمسك سيمون بمنكبي الرجل، وأعانه على النهوض. . .

فلما نظر إليه ـ حينما انتصبت قامته ـ ألفاه. مديد العود. . . جميل الوجه. . . فألقى على كتفيه رداءه وأعانه على لبسه وهم (سيمون) يخلع قبعته ليضعها على رأس الغريب. فأحس برأسه يقشعر من البرد فقال في نفسه: (أني أصلع!. أما هو فله غدائر معقوصة فلا خوف عليه!. بل يحسن أن ألبسه حذائي. . .) فأقر قبعته على (صلعته) وأجلس الرجل. وجعل حذائه في قدميه. . . وهو يقول في جرس طيب عطوف (هيا. أيها الصديق. استشعر

الدفاء ودع باقي الأمور تجري وفق مرادها أفي قدرتك أن تسير؟!)

فنهض الرجل ونظر في امتنان إلى سيمون دون أن ينبس ببنت شفه فقال سيمون: (لماذا لا تتكلم؟! أن البرد لقارص فلا بد من العودة إلى المنزل توكأ على عصاي وإلا أحسست بوهن وخوار. فاعتمد على ساعدي...)

وخطا الرجل في تعب وجهد. وفي خلال السير رفع سيمون صوته قائلا:

(من أين أنت؟!.)

ـ لست من هذه البقاع!)

(كذلك حدست. فأني أعرف القوم هنا.! ولكن كيف قدر لك أن تصير هكذا جوار الكنيسة!؟)

(لست أدري!)

ـ أساء أحد معاملتك؟!

ـ لم يتعرض لي أحد بسوء؟ لقد عاقبني الله . . .

دون ريب . . . هذا هو حكم الله . سوف تجد عيشا ومأوى أينما ذهبت! فأين تروم!)

ـ لست أدري! .)

فتولى سيمون الدهش . فما كان الرجل صاحب سوء أو خبث وتجلى من لهجته أنه خالص القلب . ولكنه لا يعلم عنه شيئا . (من يدري ما سوف يحدث!!) والتفت إلى صاحبه وقال : (حسنا! . تعال إلى داري على الرحب والسعة . !)

هبت الريح عاتية ، فياضة بالصقيع . فسرت القشعريرة في جسد سيمون بعد أن أفاق من نشوة الخمر وذهبت عنه حرارته فأخذ يدثر نفسه برداء زوجته بعد أن خلع رداءه . . . وراح يتحدث إلى نفسه : ـ

(والآن، وقد ذهبت الخمر، أعوزنا صوف المدرعة، لقد انطلقت اليوم كي أعود بالصوف، فما عدت بالصوف ولا بردائي أنا، وفوق ذلك أتيت معي برجل عار! سوف تستاء (مترونا) من ذلك!)

وحينما جالت بفكره (مترونا) زوجته أحس بالانقباض والألم يتغلغل في جوانحه، بيد أنه عندما ذكر صديقه الغريب ونظرته إليه في امتنان وحمد رقص قلبه بهجة ومراحا. . .

نهضت (مترونا) زوجة سيمون. . . ذلك اليوم بعبء واجبها المنزلي خير نهوض وانتهت من عملها مبكرة. . . قطعت الأخشاب. . وحملت الماء. . . وأطعمت الصغار. . . وتناولت هي وجبتها. . . وجلست ترقب أوبة زوجها. . . وراحت تسال نفسها:

(أيكفي الخبز . . . أم عليها أن تعمل بعضا منه الآن . . . لو أن (سيمون) تناول طعامه في المدينة . . . ولم يكن في حاجة للخبز في العشاء . . . فسوف يمتد أجل الخبز يوما آخر . لست بقادرة اليوم على أن أصنع خبزا . . . وسوف أدبر كل شيء حتى يكفينا إلى يوم الجمعة القادم . . .) . . ووضعت مترونا قطعة الخبز الباقية في مكان حريز . . . وجلست ترتق ثياب زوجها . . . وفي غضون ذلك راحت تفكر كيف يشتري زوجها صوف المدرعة كي تقيهما برد الشتاء . . .

(آه . . . لو أن البائع لا يخدعه . . . أن زوجي لغرّ . . . ! سهل على من يقوده . . . انه لا يخدع أحدا . . . ولكن الطفل يستطيع أن يعبث به . . . ثماني روبلات مقدار كاف لشراء أجود الأصواف وأمتنها . . . ! كم كنا

نرتعد بردا ونرتجف من الصقيع في الشتاء الماضي. . . وما كنت أستطيع أن أهبط النهر أو أذهب إلى مكان آخر ولكن لقد بكر سيمون في الذهاب!! وما عاد إلى الآن. . . آمل أنه لم يذهب إلى الحانة!!.

ما كادت (مترونا) تردد هذه الخواطر في ذهنها. . . حتى طرقت أذنها أصوات وأحست أن بعضهم دلف إلى الدار فقامت تجتلى الأمر. . . فأبصرت رجليه: سيمون زوجها، وشخصا آخرا. عاري الرأس ينتعل حذاء زوجها!! لم تره من قبل!.)

وحينما لاحظت أن زوجها تفوح منه رائحة الخمر. . . وليس عليه رداءه. . . ولا يمسك بيده حزمة من الصوف. . . أخذ مرجل غضبها يفور. . .

وأفسحت لهما حتى دلفا أمامها، ثم تبعتهما. . . ووقع بصرها على ذلك الرجل الغريب وقد لبس رداء زوجها. . . فلما دخلا الغرفة وقف الرجل الغريب لا يتحرك ولا يرفع بصره إليها. . . فقالت في نفسها (لعل السكر أخرسه وذهب بعقله. . .)

وعبست بوجهها وقطبت جبينها. . . ووقفت جوار (التنور) ترقب ما سوف يعملان. . . !

وخلع (سيمون) قبعته. . . وجلس على أحد المقاعد. . . وكأن الحال يجري على ما يرام.

ـ (هيا مترونا!! أن كان العشاء معدا؟! فأتبنا به. !) فزمجرت (مترونا) كاللبؤة الغاضبة. . . ولم تتحرك من مكانها جوار التنور ـ فرأى سيمون بوادر الشر تلوح في وجه

زوجته . . . فأراد أن يهدئ من روعها ويظهر أنه لم ير شيئا . . . وقدم لصاحبه كرسيا وقال له في مرح (اجلس ودعنا نصيب شيئا من الطعام . . . ! هيا (مترونا) أما أعددت لنا شيئا؟ !)

كانت نفس مترونا تلتهب غضبا وتغلي حنقا فانفجرت قائلة :

ـ (بلى . . . لقد أعددت الطعام . . . ولكن ليس لكما . . . ! يخيل لي أنك أنفقت نقودك في الشراب . . . لقد ذهبت كي تحضر صوف المدرعة . . . فما عدت إلا ومعك شريد عار عربيد . . . ليس لدي طعام للسكارى . . . !)

ـ (كفى مترونا . . . أمسكي عليك لسانك . . . ! يحسن بك أن تسألي أي إنسان هذا؟)

ـ بـل يحسـن بـك أن تخبرنـي مـاذا فعلـت بالنقود؟!)

فأخرج (سـيمون) الـثلاث (روبـلات) مـن جيبه وقـال: (هـا هـي ذي النقـود. . لم يـؤد (تريفنوف) ما عليه. . ! ووعدت زوجتـه بأنـه سوف يدفع. . .) فلم يهدئ هذا من غضـب مترونا. . . فهو لم يحضر الصـوف. . . بـل أنه ألبس وأحدا عاريا ثوبه وأتى به إلى بيتـه. . فاختطفت النقود من يده لتضعها في مكان أمـين وقالت لزوجها. . . (ليس عندي طعام. . . ومـا بمقـدورنا أن نطعـم كـل سـكير عـار في العالم. . . !)

ـ قلت كفى مترونا خير لك أن تسـمعي أي إنسان هذا ـ!)

ـ (أمن الحكمة أن أنصت إلى سـكير؟! لقـد كنت اعرض عن الزواج بك لهذا. . !)

حاول سيمون أن يخبر زوجته أنه لم يشرب إلا بالعشرين (كوبك) . . . وحاول أن يبصّرها بالحالة التي وجد عليها صاحبه الغريب . . . بيد أن مترونا كانت تنطق بسرعة هائلة . . . وتذكره بأشياء مضت منذ عشرين عاما . . . وراحت تتحدث وتتحدث، وأخيرا أمسكت بسيمون وراحت تصيح :

(أعطني ثوبي . . . إنه الوحيد الذي أملكه . . . ! وقد أعرته لك كي تحضر صوف المدرعة . . . ناولنيه أيها الكلب الأجرب . . وليعبث بك الشيطان ! ! .)

فأخذ سيمون يخلعه . . . ثم ناوله إياها . . فألقته على رأسها عمت بالخروج إلا أنها توقفت . . . ! وقد جال في نفسها أن تعرف سر ذلك الرجل الغريب فقالت لسيمون :

لو أنه رجل مهذب لما أعجزه أن يستر نفسه بثوب يشتريه! أيمكنك أن تخبرني أين عثرت (عليه)؟!)

ـ هذا ما كنت على وشك أن أخبرك إياه. . حينما أدركت الكنيسة وأنا في طريق العودة ـ أبصرته جالسا عاريا يكاد أن يتجمد من البرد والصقيع، فقد بعثني الله إليه قبل أن يقضى عليه الجوع والعرى، فماذا كان علي أن أفعله سوى أن أخلع ثوبي وألبسه إياه وآتي به معي؟ فما كان له من مأوى!! ما الذي يدرينا كم كان يلاقي من العذاب الشديد؟ لا تغضبي يا مترونا، أن هذا ذنب غير مغتفر، واذكري أننا سوف نموت جميعا يوما ما!)

وارتفعت ألفاظ الغضب إلى شفتي (مترونا)، ولكنها ما لبثت أن ماتت قبل أن تلفظها، فقد نظرت إلى الرجل الغريب وهو

جالس في سكون ووداعة على مقعده، يداه معقودتان على فخذيه، ورأسه ساقط على صدره، وعيناه مغمضتان، وجبينه مقطب، كان الألم ينهش فؤاده فينعكس على صفحة وجهه!

فصمتت (مترونا) على مضض. . . وقالت سيمون في صوت شاع فيه الرجاء والأمل: ألا تحبين الله يا مترونا؟!.)

فما سمعت (مترونا) هذه الكلمات، وألقت طرفها ثانية إلى (الصاحب الغريب) حتى فاض قلبها إيمانا. . . وراحت الرحمة تدب في نفسها. . . وأخذ الحنان والعطف يهز فؤادها. . .!

فذهبت إلى (التنور) وأتت بالطعام. . . ووضعت قدحا على المائدة وصبت فيه بعض الشراب الساخن ثم أحضرت قطعة الخبز من

مخبئها ومعها سكينان وملعقتان . . . وقالت في صوت يفيض عطفا . تفضل فتناول بعض الطعام . . . !

وأدنى سيمون المائدة من صاحبه . وفتت الخبز ووضعه في المرق وراحا يأكلان . . وجلست مترونا في جانب من المائدة! ترقب الضيف في نظرات فاحصة . فزاد عطفها عليه ورأفتها به .

وحينئذ أشرق وجه (الغريب) وأضاء . فكأنه البدر يرفل في هالة بالسماء . . ورفع عينيه النجلاوين إلى (مترونا) ونظر أليها نظرة وديعة . وافتر ثغره عن ابتسامة حلوة عذبة . .

ولم يكادا يفرغان من الطعام، ويقومان عن المائدة . . . حتى أقبلت (مترونا) على (الضيف الغريب) . . . تسائله :

ـ (من أي البلاد أنت؟!) فأجابها في صوت شاعت فيه الوداعة (لست من هذه البقاع!..)

فقالت دهشت (ولكن. ما الذي رمى بك إلى الطريق؟)

ـ (لست أدري.!.)

ـ (أتعرض أحد لك بسوء؟!.)

ـ (كلا!... لقد عاقبني الله تعالى!...)

ـ (أما كنت ملقى على قارعة الطريق؟!..)

ـ (بلى عرياناً ومثلجاً، وقد لمحني زوجك الكريم (سيمون) فأدركته الرحمة فخلع ما عليه، وألبسني إياه، وأحضرني هنا... فأطعمتني من جوع، وآويتني من برد... وأشفقت عليَ من التشريد والموت... فجزاك الله خيراً).

فنهضت (مترونا) وأحضرت له بعضاً من ثياب زوجها القديمة . . . وأعدت له مناماً على كثب من التنور يقضي فيه ليلته

باتت (مترونا) في مضجعها تتقلب فلم يزر جفنيها الكرى وما فتئت ذكرى (الغريب) تراود مخيلتها . . .

بدا لها كيف أتى على نصيبهم الأخير من الخبز . . . فلم يدع لهم شيئا إلى العند . . . فأحست بالحزن يساور نفسها . . . والألم يتغلغل في قلبها . . . بيد أن تلك البسمة التي رفعها إليها (الضيف الغريب) جالت في صفحة فكرها وجلبت السكينة إلى نفسها وقالت تحدث زوجها في خفوت، وقد كادت أن تأخذه سنة من النوم : ـ

(سيمون! . . .) فأجابها في توجس وضيق : (ماذا؟!)

ـ (لقد أتيتما على آخر ما عندنا من الخبز. ولست أدري ما الذي نفعله غداً!! ليتني أستعير بعضاً من جارتنا (مارثا!...)

ـ (إذا امتد بنا الأجل إلى الغد... فسوف نرزق من حيث لا ندري!...)

فلبثت المرأة برهة لا تنبس... ثم قالت في رقة (يخيل إلي أنه رجل طيب كريم، ولكن ما الذي يحمله على الصمت فلا يكشف لنا جلية أمره؟!.)

ـ (أحسب أن لديه علة تمنعه!.)

ـ (سيمون!.)

ـ (نعم!.)

ـ (ما بالنا نعطي! وليس ثمت من يتفضل علينا بعطاء)

فحار سيمون جواباً... ثم لم يلبث أن قال لها: ـ (دعينا من هذا الحديث!...)

وانقلب على جانبه . . . وراح يغري بعينيه النوم بعد أن جفاه . !

وفي الغداة . . . أفاق (سيمون) من نومه ، وكانت الأطفال تعبث في البيت صياحاً ولهواً ، وانطلقت زوجته لتسأل جارتها بعضاً من الخبز . . . أما الغريب فكان يجلس على مقعده ـ في ثياب سيمون الخلقة ـ يرمي طرفه إلى السماء ـ وفي عينيه توسل ورجاء ، وقد عاد إلى وجهه بهاؤه وضياؤه عن البارحة . . .

فقال (سيمون) في طلاقة ومرح : (هه ! . . أيها الصديق . . . إن السغب يدعو الإنسان إلى السعي وراء القوت ، والعرى يضطره إلى طلب الملبس . . . فعليه أن يعمل ويكد . . . فما الذي تعرفه من المهن ؟ ! .)

ـ (لست أدري شيئاً ! .)

فقال سيمون في صوت ملئ بالدهش .

ـ (إن كـــان للإنســـان رغبـــة في الـــتعلم فسيتعلم؟!)

ـ (وإن لفي نفسي رغبة إلى ذلك.!)

ـ (ماذا تدعى؟!...)

ـ (ميشيل...)

ـ (حســناً يــا ميشــيل... إن لم تكــن في نفسك ترغبه إلى أن تحدثنا عن نفسك، فهذا من شئونك... غير أنه يجب أن تتكسب رزقك، فإن عملت بما سأشير عليك به.! فسـوف تجـد عندي طعاماً طيباً، ومأوى حسناً...)

ـ (جزيــت خــيراً... وإنــي لمطيــع لمــا تقول!.)

ـ (إن ذلـك غايـة في البسـاطة... فـانظر إلي.) ثم أمسك (سيمون) بخيط، ولفـه حـول إبهامــه وراح يجدلــه في براعــة... فراقبــه (ميشيل) ثم أخذ قطعة من الخيط وثناهـا علـى

إبهامه وانفك يجدلها كما فعل سيمون وفي براعته وإجادته، وعلمه سيمون كيف يشمع الخيط ويقطع الجلد ثم يخيطه. . . فبرع (ميشيل) في كل ذلك. . . حتى أصبح ماهر البنان كأنه مارس تلك الحرفة طيلة حياته. . .

كان لا يبرح يعمل ويعمل دون توقف، ولا يطعم غير القليل، حتى إذا ما انتهى من عمله، جلس صامتاً يحدق في سماء الغرفة وفي عينيه ذلك الرجاء وذلك التوسل. . . ولم يكن يخرج إلى الطريق، بل يظل حبيس الدار، رهين العمل، لا ينطق إلا بكلمات قلائل يضطر إليها. . . وما ضحك يوماً، وما ارتفع لسانه بفكاهة. . . ولم ترتسم على وجهه ابتسامة أبداً، إلا تلك التي أضاءت على جبينه يوم أن قدمت إليه (مترونا) العشاء. . . !

وتتابعت الأيام وتعاقبت الشهور . . . وميشيل يعيش ويعمل جهده مع (سيمون) . . وجرى اسمه على كل لسان، وطبقت شهرته في كل مكان . . . حتى طفق الناس يأتونه من كل صوب وفج يعاملونه . . . حتى ازدهر حاله . وزال عنه بؤس الحياة وعسرها .

كان (سيمون) وميشيل يعملان ذات يوم حينما جلجلت بباب دارهم الأجراس فأسرع كل منهما إلى النافذة، يستجلي الأمر . . . فأبصر بعربة (زلاقة على الثلج) يجرها ثلاثة من الجياد المطهمة الصافنة . . . تقف بباب الدار، وخف تابع إلى بابها ففتحه . . . فظهر منه سيد جليل مهيب ـ عليه جبة من الفرو الثمين ـ ووقف بباب الكوخ، فسارعت (مترونا) إليه تفتحه على مصراعيه، وترحب بمقدم الضيف الجليل فطأطأ الرجل رأسه عند ولوجه الباب .

فلما انتصبت قامته الممشوقة كاد أن يمس رأسه سقف الغرفة فنهض سيمون وانحنى إجلالاً للضيف وقد سرى إلى نفسه الدهش. . . فما رأى مثل هذا الرجل في عظمته ورفاهيته فقد كان سيمون هزيلا نحيفا، وميشيل صدعا رفيعاً. . . كما أن (مترونا) كانت ضاوية الجسد جافة العود. . .

أما هذا السيد، فيخيل لمن يراه أنه من عالم آخر وجنات مكتظة مليئة. . . ووجه مطهم شاعت فيه الحمرة الوردية، وجسد زهم كالفيل في هيئته وبدانته، وعنق أقمد كعنق الثور وما أن جلس على المقعد حتى قال (من منكم صاحب العمل؟!) فدنا منه سيمون وقال في صوت أصحل من الرهبة (أنا يا صاحب السعادة!!)

فصاح السيد بتابعه (هيا . . . أحضر الجلد . . . يا (فدكا) فلما أحضره، ووضعه على المائدة . . . قال السيد مشير إليه : ـ (أنظر أيها (الإسكاف) أترى هذا الجلد؟ .)

ـ (أجل يا صاحب السعادة . . . إنه أثمن جلد رأيته في حياتي ! .)

ـ (أبمقدورك أن تصنع لي حذاء منه؟ !)

ـ (أجل يا صاحب السعادة ! .

ـ (أتستطيع ! ؟ حسناً . . . فلا يغب عن بالك لمن سوف تصنع هذا الجلد الثمين . . . أستمع . . . ينبغي أن تجعل لي منه حذاء أحتذيه عاماً كاملا . . . لا يبلى ولا يخلق . أفهمت إن لم يكن بمقدورك هذا، فصارحني . فإني أود حذاء أحتذيه عاما بأكمله . . . وإني لأحذرك الآن وإلا فسوف يكون مستقرك

السجن وإذا لم يبل في مدى عام . . . فسوف أمنحك عشر روبلات نظير ذلك . . .)

فارتعدت فرائص (سيمون) وعجز عن الكلام . . . والتفت إلى (ميشيل) ووكزه قائلاً في همس وحسيس (أنأخذ هذا العمل على عاتقنا؟ !) فأومأ (ميشيل) برأسه موافقاً . . . فانفرجت أسارير (سيمون) وسرى عنه همه وجزعه . . . وراح يقيس قدم السيد . . . يتعرف عسيبها ويقدر أخمصها . . . ويسجل ذلك على وريقة تعنيه على صنع الحذاء . . . فلما انتهى من ذلك قال له السيد وهو يجول طرفه في أرجاء الكوخ .

ـ (لا تجعلها تضيق بقدمي ! .) . . . فلما وقع طرفه على (ميشيل) قال في تساؤل :

ـ (من هذا؟ !)

ـ (إنه عامل عندي . . . وسوف يتشرف بخياطة حذاءك)

فتحدث السيد الجليل إلى ميشيل قائلا (أنت يا ذا . . . لا يغيب عن بالك أني أود حذاء مريحاً . . . يمكث عندي سنة . . . هه . . . سنة بأكملها ! .)

نظر (سيمون) إلى (ميشيل) . . . وكان هذا يحدق في ركن الغرفة فوق السيد . . . وقد شرد خياله عما هم فيه . . .

وكان يحدق . . . ويحدق ، وعلى غرة ارتسمت على ثغره تلك الابتسامة العذبة ، وأشرق وجهه وأضاء . . . فزمجر السيد قائلا :

ـ (فيم تحملق أيها الأبله؟ ! خير لك أن تنظر إلى ما يدر عليك رزقك ! .)

فقال سيمون (سيعد لك الحذاء يا صاحب السعادة . . . في الحال . . .) فنهض السيد

وهم بالخروج والغضب يحمر في عينيه، واستقر في عربته فانطلقت تجلجل أجراسها. . . فلما اختفت في منعطف الطريق. . . قال سيمون ـ وما زال الدهش يسيطر على نفسه ـ (هذا مثال لإنسان جبار. . . لا يقتله المرؤ ولو بمطرقة. وأحسب الموت يتخوف من جبروته. . . فلا يمس له جسداً! .) ثم حدث ميشيل قائلاً:

(حسناً لقد أخذنا على عاتقنا أن نصنع حذاء له. . . ولكن ينبغي ألا يكون ذلك سبباً في متاعب جديدة. . إن الجلد لثمين وإن صاحبه لجاد في طبعه. . . فيجب ألا نخطئ معه هيا. . . يا ميشيل، إن عينيك أدق من عيني، ويديك أبرع من يدي، فهاك الجلد، فقطعه حسب المقياس. . . وسوف أخيطه أنا! .)

فبسط (ميشيل الجلد على المقطع ثم طواه طية واحدة. . . وراح يقطعه بالأزميل. . .

كانت (مترونا) ترقبه في عجب ودهش. . فقد طالما كيف تحذي النعال وأدركت أن (ميشيل) لا يقطع الجلد على طريقة الأحذية. بل لشئ آخر لا تعرفه هي، فقالت في نفسها (لعلي لا أعرف شيئاً عن صناعة الأحذية للسادة والأشراف! . وأحسب أن ميشيل يعرف المزيد عنها. . . سوف لا أتطفل عليه! .)

فلما فرغ ميشيل من القطع. . . أمسك بخيط واحد وراح يخيط الجلد ـ كأنه من الخفاف ـ لا بخيطين كما تخيط الأحذية فعاد الدهش إلى (مترونا) من جديد. . . غير أنها أمسكت عن تدخلها. . .

ومكث ميشيل يعمل حتى وافت الظهيرة. وقام سيمون يلقي نظره إلى ما أتمه ميشيل.

فلم يلبث أن راعه ذلك وقال في أحيح وعجب: (آه! . كيف تفعل هذا يا ميشيل؟! لقد لبثت معي سنة بأكملها ـ لم تأت أثناءها بخطأ قط فكيف تقع في هذه الغلطة التي ستوردنا مورد الهلاك! . لقد قال إلينا السيد أنه يود حذاءاً. وها أنت قد جعلت له من جلده الثمين خفاً. . . سوف يثير حنقه علينا. . . وما في قدرتنا أن نأتي بجلد مثله. . . لقد حطمت حياتي يا ميشيل! .)

فما وفيما هو يعلك ألفاظاً من التوبيخ والعتاب. . . حتى سمعوا طرقاً على الباب وأبصروا من النافذة رجلاً يترجل عن جواده ويربطه في حلقة الباب. . . ففتحت له (مترونا). . . وكان ذلك الرجل هو التابع الذي صحب (السيد الجليل) في الصباح. . .

فقال لهم : (لقد بعثت بي سيدتي في أمر الحذاء ! .) فقال سيمون في جذع :

ـ (ماذا عن الحذاء؟ !)

(إن سيدي ليس في حاجة إليه ! . فقد مات . !)

ـ (هه ! . أحقاً هذا؟ !)

ـ أجل . . . لقد دهمه الموت وهو في مركبته ! . فلما بلغنا المنزل . . . جاء الخدم يعاونونه . . . فقد حرجت جثته على الأرض كالكيس الممتلئ . . . وقد بعثت بي سيدتي لأقول لكم إن السيد الذي أتاكم هذا الصباح ليس بحاجة إلى الحذاء . . . بل ينبغي أن تعجلوا بعمل خف لجثته . . . كي أحمله إليها الآن .)

obeikandl.com

فقام ميشيل . . . وضم بقايا الجلد إلى الخف بعد أن مسحه بمئزرته وسلمه إلى الخادم الذي انطلق به قائلا : (وداعاً أيها السادة! . .)

كرت السنون . . . وها هو ذا ميشيل يعيش عامه السادس مع سيمون وعائلته لم يتحول عما درج عليه . . . ولم يتغير شئ من طبعه . . . لا يخرج أبداً من الدار . . . ولا يتحدث إلا بمقدار ولم يرتسم الابتسامة على شفتيه إلا مرتين لا تثلثهما أخرى . . .

واحدة حينما تفضلت عليه (مترونا) بالطعام . . . والثانية حينما كان يحدق في ركن من الغرفة فوق (السيد الجليل) وكان سيمون على وفاق مع عامله . ولم يسأله يوماً من أين أتى بل كان في خشية من أن يرحل ميشيل عنه .

وبينما هم جميعاً في الدار ذات يوم . . . وكانت (مترونا) تضع إناء على النار ، والصغار

يمرحون في لهو وعبث، وسيمون جالس يخيط حذاء في يده. . . أما ميشيل مستغرقاً في عمله على كثب من النافذة. . .

ووضع أحد الأطفال يده على كتف ميشيل. ونظر من النافذة وصاح قائلاً:

(أنظر. . . يا عم ميشيل، هناك سيدة معها بنتان صغيرتان يظهر أنها تريد دارنا إن واحدة من البنات تعرج في سيرها!) فألقى ميشيل بما معه وسارع ينظر من النافذة إلى الطريق. . . فتعجب سيمون، فما رأى (ميشيل) ينظر يوماً إلى الطريق في هذه اللهفة. فدعا ذلك سيمون إلى أن ينظر هو أيضاً كي يستبين ذلك الشيء الذي أثار ميشيل. فرأى سيدة حسنة الهندام تتجه حقاً إليهم وتقود طفلتين عليهما أردية من الصوف وشمائل من الفرو. . . يعجز المرء عن أن يميز إحداهما

عن الأخرى إلا تلك التي يعتري ساقها اليسرى شئ من العرج.

وولجت السيدة بطفلتيها الغرفة. . . وقالت في صوت رقيق

ـ (سعدتم صباحاً. . . أيها القوم الطيبون؟!)

فقال (سيمون):

ـ (سعدتي صباحاً. . . سيدتي الفاضلة. ماذا في مقدورنا أن نعمله لك؟!)

فجلست السيدة على مقعد. . . وقد التصقت بها الطفلتان في خوف ممن في الكوخ.

ـ (أود. . . حذاءين من الجلد لهاتين الطفلتين، للربيع!. . .)

ـ (إننا لم نصنع من قبل مثل هذه الأحذية الصغيرة. . . غير أننا قادرون على ذلك. . إن مساعدي (ميشيل) أستاذ صناع في هذا!.)

وألقى سيمون بنظره إلى ميشيل . . . ليرى أثر الإطراء والثناء عليه . . . فوجد هذا جالساً يحدق في الطفلتين الصغيرتين فانتاب سيمون العجب وتولاه الدهش . . . حقاً كانت الطفلتان جميلتين لهما وجنتان وردية وشعر معقوص وعيون نجل . . . ترتدي كلتاهما ثياباً فاخرة من الصوف والفراء . . . بيد أن سيمون لم يفطن إلى سر تحديق ميشيل إليهما كأنه يعرفهما من قبل!

كان في حيرة من أمره . . . فانطلق يحدث السيدة ويقدر الثمن معها . . وبعد مساومة وإقرار . . . هم أن يأخذ مقياسهما فقالت السيدة وهي ترفع قدماً للبنت العرجاء (إن هذه القدم عرجاء فاعمل لها حذاء على حدة . . . أما القدم الأخرى وقدمي الطفلة الثانية . . .

فهي صحيحة متشابهة وحجمها واحد . . . إنهما توأمتان . . .)

فسجل سيمون ما قاسه على وريقة صفراء . وقال يحدث السيدة : ـ

ـ (ما الذي حدث لها؟ ! فأصابها بهذا العرج . . . إنها تبدو جميلة . . . أو ولدت هكذا؟ !)

ـ (كلا . . . فلقد حصرت أمها قدمها فالتوى . . .)

فتعجبت (مترونا) وتساءلت من تكون هذه السيدة؟ ! ومن تكون هاتان الطفلتان . . . فقالت في صوت شاع فيه ما يجول في نفسها من دهش .

ـ (الست أمها إذن؟ !)

obeikandl.com

ـ (كلا . . . يا سيدتي الفاضلة . . . لست أمهـا ، ولسـت إحـدى قريباتهمـا . . . لقـد تبنيتهما . . .)

فزاد عجب (مترونا) وهي تقول :

ـ (ليسـتا طفلتيـك . . . وتحبينهمـا هـذا الحب؟ !)

ـ (لـيس لـي حيلـة في ذلـك؟ ! أطعمهمـا وأربيهما . . . ولقد رزقـني الله ولـداً ولكـنني احتسـبته . . . ومـا كنـت أحسـبه مثـل حـبي هاتين الطفلتين ! .

وطفرت من عينها دمعة حارة . . . تألقـت في مقلتها . . . ثم لم تلبـث أن انحـدرت علـى وجنها . . . فمسحتها في هدوء وحزن فقالـت مترونا في أسف وتأثر : ـ

ـ (معذرة . . . ما كنت أحسب أن هذا يجلب إلى نفسك الحزن والألم . . . ولكن من هي أم هاتين الطفلتين؟ .)

طفقت المرأة تحدثهم بقصة هاتين الطفلتين . وقد شاع الحزن في صوتها ، وأرتسم الألم على جبينها فقالت :) إنها لقصة فاجعة . . . ! لقد قضى أبوهما يوم الثلاثاء ، ولحقت به أمهما يوم الجمعة بعد أن وضعهما . . . وكنت أنا وزوجي نعيش ككل الفلاحين في بساطة عيش ودقة حال ، وكانت دارنا مجاورة لدارهم . لقد مات أبوهما وكان يقطع الأخشاب في الغابة تحت جذع شجرة هوت عليه من حالق ، فسمعته وفاضت روحه قبل أن يبلغوا به الدار .

وبعد ثلاثة أيام . وضعت زوجته هذين التوأمتين ـ ولم يكن لها من ناصر أو معين فوضعتهما وحيدة ولقيت منيتها وحيدة . . . !

وفي اليوم التالي توجهت إليها، أنظر ما آلت إليه حالها. . . فما كدت أتخطى الكوخ، حتى وجدتها متيبسة الجسد وقد علت وجهها صفرة الموت. . . وتدحرج جسدها فوق هذه الطفلة، فأصاب ساقها العرج. . . !

وجاء القوم من القرية ـ وكلهم حزين، يأكل قلبه الألم ـ فكفنوها في خال وحملوها إلى المقبرة، ودفنوها جوار زوجها. . . لقد كانت الطيبة تملأ نفوسهم والعطف يفيض من قلوبهم. . . ! ولكن هاتين الطفلتين أصبحتا ومالهما من ولي أو كفيل. . . وكنت حينئذ المرأة الوحيدة في القرية التي عندها طفل لم يتجاوز أسبوعه التاسع. . . فضممتها إلى صدري. . . وعدت بهما إلى كوخي. فلما اجتمع الفلاحون راحوا يفكرون ويطيلون التفكير في أمرهما، وأخيراً، قالوا لي: عليك

العناية بهما الآن يا ماري. . . وسوف ندبر أمرهما فيما بعد. . . !)

فأخذت على عاتقي أن أرضع هذه الطفلة الصحيحة، وأدع العرجاء. . . فما كنت أحسب أنها ستعيش. ولكني تساءلت: بأي ذنب تعاني هذه الطفلة ألم الجوع؟! فما لبثت الرحمة أن فاضت بين جوانحي. . . فرحت أرضهما مع طفلي. . . وقد كنت لبانة يتفجر اللبن من ثديي في فيض لا ينقطع، وكان الله يأتيني برزق هاتين الطفلتين. . . فترعرعتا على حين توفى الله طفلي الوحيد، قبل أن يبلغ السنتين. . . وقد أقبلت علينا الدنيا بعد انصرافها عنا. . . فزاد حبي لهما وحناني عليهما. . .

أفعلمتم الآن سبب ذلك الحب؟! إنهما سعادتي في هذه الحياة، وأملي في هذه الدنيا. !)

وضمت (السيدة) الطفلة العرجاء إلى صدرها بإحدى يديها، بينما ارتفعت يدها الأخرى لتمسح دمعة حارة تحدرت على خدها فتنهدت (مترونا). . . وقالت في صوت عميق وجرس ندي: (صدق من قال) يعيش المرؤ بغير والديه! ولكن لا يعيش بغير الله. . . !)

وران الصمت عليهم. . . ! وفجأة انبثق في الكوخ نور باهر كأنه وميض البرق في ظلمات الشتاء. . . وشع الضوء من ذلك الركن الذي يجلس فيه (ميشيل). . . فالتقت عنده أبصارهم. وهو على كرسيه يحدق في سماء الغرفة. وقد افتر ثغره من ابتسامة حلوة. أشرقت في وجهة وأضاءت على جبينه. .

فلما تهيأت المرأة للذهاب. حيتهم. . . وأمسكت بطفلتيها. ومضت بهما. . . فنهض (ميشيل) من جلسته. . . ووضع ما

كان بيده وخلع عنه مئزره . . . ثم انحنى لسيمون وزوجته (مترونا) وقال في صوت شكور (وداعاً . . . أيها السادة . . . لقد عفى الله عني . . . ! وغفر لي ذنبي . . .)

وراح ميشيل يتألق في ضياء تنبعث من هالة حوله . . . فانحنى سيمون وقال في صوت ملؤه العجب (لقد حدست إنك لست ببشر يا ميشيل . . . ولن أثقل عليك بتساؤلي . . . ولكن آمل أن تخبرني : لماذا تألق وجهك حينما عثرت عليك في الطريق عريان جائعاً؟ ! ولماذا ابتسمت إلى زوجتي تلك الابتسامة الوضيئة حينما قدمت إليك الطعام؟ ! وحينما دخل ذلك (السيد الجليل) كوخنا، لنصنع له حذاء إفتر ثغرك عن بسمة مثيلة بها؟ . وأخيراً حينما أتت هذه السيدة مع هاتين الطفلتين تألق وجهك بابتسامة ثالثة في جلال وبهاء . . .

نشدتك الله يا ميشيل أن تطلعني على سر ذلك الإشراق، وعلة هذه الابتسامات الثلاث؟!!). . .

قال ميشيل في صوت هادئ رخيم (لقد انبثق الضوء عني وأشرق النور مني لأن الله يعاقبني. . . بيد أنه عز وجل غفر لي ذنبي أخيراً! . . . والسر في تلك الابتسامات الثلاث أن الله أرسلني كي أتعلم ثلاث حقائق. وقد تعلمتها. . . !

لقد تعلمت واحدة حينما فاضت الرحمة من قلب زوجتك. . . فكانت الابتسامة الأولى!!

وتعلمت الثانية حينما سمعت ذلك (السيد) يتحدث عن حذائه، فكانت الابتسامة الثانية!!

وتعلمت الثالثة عندما رأيت هاتين الطفلتين. . . فكانت الابتسامة الثالثة!)

فقال سيمون في دهش ورجاء (خبرني لماذا عاقبك الله يا ميشيل؟! وما هذه الحقائق الثلاث؟!

فأجاب ميشيل في صوته الهادئ الرخيم (لقد عاقبني الله لأني عصيت له أمراً. . . لقد كنت. . . ملاكا أسبح في ملكوته الأعظم. . فأنزلني ذات يوم إلى الأرض لأقبض روح امرأة من خلقه. . . فأبصرها راقدة على سريرها وحيدة ـ وقد وضعت توأمين! ـ فلما أحست دنوي منها، أدركت أني رسول الله إلى روحها. فقالت وقد كادت أن تحبس صوتها الدموع: (أيها الملاك. . . لقد مات زوجي منذ أيام وما لي من أخت أو عمة أو ولية ترعى طفلتي. . فلا تقبض روحي! ودعني أرضعهما وأرعاهما حتى تستويا على سوقهما قبل أن أموت!! إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم!.)

فأصغيت إلى حديثها الرقيق الرفيق . . . ووضعت إحدى الطفلتين على صدرها والأخرى على ذراعها . . . وانثنيت آيباً إلى الله تعالى في السماء . . . وقلت في خشوع (إني عاجز عن أن أقبض روح هذه الأم . . . لقد قتل زوجها تحت جذع شجرة منذ أيام . . . وولدت لها اليوم توأمتان . . . وتوسلت إلى ألا أسلّ روحها قائلة (دعني أرضعها وأرعاهما حتى تستويا على سوقهما قبل أن أموت! إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم . !) (فعدت ويدي عاطلة من روحها! .) فسمعت الصوت العلوي يردد الأمر الجليل (اذهب . . فاقبضها ولا تكن عودتك إلى السماء قبل تتعلم حقائق ثلاث) :

(ما الذي فطر عليه الإنسان؟!)

(ما الذي حرم منه الإنسان؟!)

(ما الذي يعيش به الإنسان؟!)

فعدت طائراً إلى الأرض ـ وأنا أرتعد فرقاً من غضب الله وأنتفض جزعاً من عقابه.

فقبضت الروح. . . وسقطت الطفلتان من على صدرها، ومال جسدها على جانبها، فحطم ساق إحدى الطفلتين فالتوت. . . وهممت بأن أصعد إلى السماء أحمل الروح إليها. ولكن الريح أثقلتني وأخذت أجنحتي تتضاءل وتنسل من ظهري. . . فصعدت (الروح) وحدها إلى الله. . . بينما سقطت أنا على الأرض في جانب من الطريق!.)

فغر سيمون فاه. . . ونظرت (مترونا) في بلاهة يشوبها الدهش. . . لقد أدركا الآن من كان يضمه دارهم ويعيش بينهم ويأكل من طعامهم. . . فترقرقت الدموع في عيونهما. وراحا يبكيان في نشيج ومزيج من الرهبة

والمـرح. والإجـلال والفـرح وانطلـق المـلاك يقول: (لم أكن أعرف حاجات البشر من جوع وعرى حتى صـرت بشـراً مثلـهم. . . كنـت وحيـداً. . . يهرؤنـي القـر، واتضـور مـن الجوع. . . ولا أدري ما الـذي أفعلـه في هـذا العالم.

وامتـد طـرفي. . . فلمحـت كنيسـة علـى مرماه. . فتوجهـت إليهـا عسـاني أجـد ثمـت مـوئلا. . . بيـد أنهـا كانـت مغلقـة. . . فتوجهت إلى مـا وراءهـا. . . حيـث قعـدت أتوقى بها لريح الصرصر التي تسـفح الوجـه، وتصك الجسد. . . !

فلما غشى المساء عيون الكون. . . رأيـت إنساناً يقبل وحيداً على. . . وبينه وبين نفسـه حديث. . . ولأول مرة رأيـت وجـه الإنسـان ذلـك الوجـه المخيـف الميـت فأشـحت عنـه

برأسي . . . وطرق سمعي ذلك الحديث أو تلك الخواطر التي كانت تضطرب بينه وبين نفسه . . . وتنعكس على شفتيه فيرتفع بها صوته . . . كان يتساءل كيف أنه يقي جسده لفحة البرد وقشعريرة الشتاء ، ويغذي زوجته وصغاره بماله اليسير . . .

فرمت أفكر (هذا إنسان يدبر ملبساً له في الشتاء . . . وطعاماً لعائلة . . . فكيف يقدم لي يد المساعدة؟!) فلما لمحني اضطرب فرقاً وجزعاً ومر بي في الجانب الآخر من الطريق . . فتداركني اليأس ، لولا أني أبصرته ينقلب راجعاً إلي . . . فرفعت إليه بصري فلم أعرفه . . . لقد كان يرتسم الموت على جبينه . أما الآن فسوف يعيش . . . لقد عرفت في شخصه وجود الله عز وجل . ! ألبسني ثوباً عليه ، وأخذني معه إلى داره حيث وجدت من

هي أقسى قلباً وأشد كلاماً . . . لقد شاع في صوتها الموت، وأبصرت من حولها الهلاك . . كانت تود لو ألقت بي إلى قارعة الطريق . . . ولو أنها فعلت ذلك لكان الموت من نصيبها . !

فلما بدأ الرجل يحدثها عن الله عز وجل، لان قلبها ومال إلى فؤادها . . . فأحضرت لي الطعام، ونظرت إلى وجهي في عطف وشفقة . فعرفت في شخصها وجود الله . . .

فتذكرت أولى الحقائق الثلاث التي أمرني الله بأن أعلمها (ما الذي فطر عليه الإنسان؟ ! .) .

فأدركت أن الذي فطر عليه الإنسان هو (الحب) ! ! وقد تولتني البهجة حينما علمت أن الله أوحى إليَّ بالدرس الأول . . . فافتر ثغري عن الابتسامة الأولى . . . ولكن بقي على أن أتعلم الحقيقتين الأخرتين : (ما الذي حرم منه الإنسان؟ !) و (ما الذي يعيش به الإنسان؟ !) .

(مضى عام وأنا أعيش بينكم. . فلما أتى ذلك السيد الجليل يأمرنا بصنع حذاء له على ألا يبلى أو يخلق قبل أن تنقضي سنة على ذلك. . . نظرت إليه. . . وعلى حين غرة لمحت فوق رأسه رفيقي (ملاك الموت) ولم يره أحد سواي. . . ولكني عرفته، وأدركت أن الشمس لن تغيب عن الأفق إلا وقد غابت روح ذلك الرجل عن جسده. . . فتعجبت. . . إن هذه الرجل يعد العدة لعام بأكمله. . . ولا يحسب أن قضاءه قد حم. . . وأن المساء لن يأتي عليه إلا وجثته مسجاة هامدة. . .).

فتذكرت الحقيقة الثانية، فكأن الله يوحي إلى أن تعلم (ما الذي حرم منه الإنسان؟) فابتسمت للمرة الثانية. . .

ومكثت أنتظر أن يوحي إلى الله بالحقيقة الثالثة (ما الذي يعيش به الإنسان؟!).

وفي العام السادس. جاءت امرأة ومعها توأمتان صغيرتان فعرفت الطفلتين وعرفت أن الله قد قيض لهما من كان أحن عليهما من أمهما. . . فعاشتا وترعرعتا. !

ولما سمعت ما قصته علينا من كفلتهما رحت أفكر مستغرقاً (لقد توسلت إلى أن أدعها حية حتى ترعى الطفلتين. . . الضعيفتين. . واعتقدت أنها على حق حينما قالت (إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم. . .) بيد أن امرأة غريبة عنهما كفلتهما حتى نمتا وشبتا. . . وأدركت مبلغ ذلك الحب الذي يختلج بين جوانح بين تلك الظئر الحاضنة. . . فرأيت في شخصها وجود الله. . . وتعلمت الحقيقة الثالثة وهي (ما الذي يعيش به الإنسان؟!). . . إنه (الحب). . . وعلمت أن الله أوحى إلي بالدرس الأخير. . . وأنه

عفى عما تقدم ذنبي ومن عصيان أمره على غير بصيره . . . فكانت الابتسامة الثالثة ! ! .)

أضحى (الملاك) وهـوَ عـار ممـا عليـه . . . يشع من جسه نور قوي يبهر الأبصار . . .

وراح صوته يخفت وينخفض حتـى صـار، وكأنه لا يأتي من فيه . . . بل يـأتي . . . مـن السماء . . . !

(لقد علمت أن البشر لا يعيشـون بـالحرص علـى حيـاتهم . . . بـل بالحـب المغـروس في قلوبهم وهل نفع حرص الأم علـى بنيتهـا؟ ! لا بل كان حب الظئر لهما ! ! .

ولقـد عشـت ـ عنـدما كنـت إنسـاناً ـ لا بالحرص على حياتي . . . بـل بالحـب يختلج بين جوانح عابر سبيل . . . وبالرحمة والعطف الذي انبثق في فؤاده هو وزوجته على . . .

إن الحب شيء فطر عليه الإنسان وغرس في قلبه . . . وعليه يعيش وبه يحيا في هذه الدنيا . ! وكنت احسب أن الله وهب الحياة للبشر ، ومنحه الأمل في أن يعيش . . . بيد أني الآن علمت أشياء أخرى . . . ! علمت أن الله لم يخلقه كي يعيش وحيداً فريداً . بل خلقه ألوفاً ساعياً للارتباط بغيره . . . عرفت أن المرأ مع تخيله أنه يعيش بالحرص على حياته . . . فهو يعيش في الحقيقة بالحب . . . لأن من كان الحب يملأ قلبه . . . فهو يعيش في الحقيقة بالحب . . . لأن من كان الحب يملأ قلبه . . . ففيه نفحة من الله . . . فالله عز وجل هو الحب . . . والحب هو الله ! ! . . .)

ثم ارتفع صوت (الملاك) في جرس ندي يردد أنشودة ملائكية يحمد فيها الله ويثني على آلائه ! ! فكان الكوخ والأشجار والطيور

تتراقص وتهتز وكأنها تسبح بآيات الله . . . وانحسر سقف الكوخ حيث ارتفع عمود من النور يربط السماء بالأرض . . . فخر (سيمون) وزوجته وأطفاله وقد ملكت نفوسهم الرهبة والخشوع، وملأت قلوبهم الخشية والإجلال! . ونبت (للملاك) جناحان على كتفيه . . . حيث راح يسبح بهما مصعداً إلى السماء . . . !

فلما أفاق (سيمون) . . . وراح يقلب طرفه فيما حوله . . . رأى الكوخ وقد أصبح كما كان . وليس فيه سوى زوجته (مترونا) وأطفاله الصغار . . .

openlandr.com

الخير والشر..!

حدث في الأيام التي خلت وطوتها صفحات الدهر منذ القدم.. أن كان ثمة رجل رضي النفس طيب القلب جليل الشأن عظيم القدر.. أقبلت عليه الدنيا وأتاحت له وفراً من ماله فملك الضياع والديار.. وراح يعيش في ثراء ورغد، ومن حوله جمع من العبيد يقومون على خدمته ويتولون قضاء حاجته. وقد بثهم سيدهم من الود وأخلص لهم من العطف ما جعل أفئدتهم تخفق بحبه وألسنتهم تلهج بحمده.!

وراحوا يتيهون بسيدهم فخراً وزهواً، يغبطون أنفسهم على هذا الفضل وهذه النعمة ويعربون لجيرتهم عن مبلغ هناءتهم قائلين:

(لم تطلع الشمس على من يضاهي سيدنا في طيبته ورقة عاطفته. . . فهو يطعمنا إذا ما أدركنا الجوع، ويخلع علينا من الثياب كل طريف ومن الأبراد كل جميل، ويهيئ لنا أعمالا تتفق ومقدرتنا وقوتنا. . . وما تلفظت شفتاه يوماً بكلمة سوء يرمينا بها ولا بيت لنا حقداً ولا ضغناً. . . فما هو كالسادة الآخرين الذين يذيقون عبيدهم هول العذاب ويقسون في عقابهم سواء أحق عليهم أم لم يحق. ! ولا يحنون عليهم بكلمه عطف ولا يواسونهم إذا ما مسّهم الضر. . . أما سيدنا فقد وهبه الله قلباً يتمنى لنا الخير ونفساً ترجو لنا السعادة. . . نحن لا نأمل في حياة أهنأ ولا أرغد من هذه. !).

فضاق الشيطان ذرعاً بذلك الحب والود الذي يكنه العبيد لسيدهم، فعمد إلى واحد

منهم يدعى (ألب) فسخره ليوغر صدورهم ويشيع بينهم الفتنة والعصيان ويسرب إليهم الفساد. . .

وبينما هم جلوس ذات يوم يتناقلون حديث العطف والكرم الذي يسبغه عليهم سيدهم ويحوطهم بفضله. . . رفع (ألب) صوته قائلا في خبث ودهاء: (إن من الغباء والحمق أن نغرق سيدنا بهذا الحمد ونحيطه بتلك الهالة من المديح. . . وهو لا يستحقها. فالشيطان قدير وكفيل بأن يكون كيساً رقيق الحاشية معكم إذا ما أديتم له كل ما يروم! . فنحن نخدم سيدنا في وفاء وإخلاص ونحقق له كل ما يساور نفسه ويراود فؤاده من بغيات. . . فما الذي يسعه سوى أن يكون رحيماً كريماً معنا؟! . دعونا نحاول أن ندفع إليه ضرراً ما ثم ننظر ما يكون من جلية أمره. . . وإني لعلى يقين من أنه لا

يفضل أقرانه السادة. فلسوف يلقى إساءتكم بمثلها بل وأشد منها. . .).

فانطلق بقية العبيد ينكرون هذا القول، ويدرءون الشبهات عن سيدهم وولي نعمتهم. بيد أنهم ما لبثوا أن عقدوا فيما بينهم رهناً مع (ألب) الذي أخذ على عاتقه أن يثير حفيظة سيده ويلهب غضبه. . . وقد تعهدوا بأن يدفعوا إليه بالثياب التي يحرمه منها سيده، ويقوموا مدافعين عنه أمامه أو يعمدوا إلى إطلاق سراحه أن حبس أو غل بالقيد!.

كان (ألب) راعياً مسئولا عن فِرْزٍ من الغنم النادرة الغالية التي يعتز بها سيده. . .

وفي اليوم التالي حينما أقبل سيده في صحبة من أضيافه ليريهم ويمتع ناظرهم بتلك الأغنام الكريمة. . . غمز (ألب) بحاجبه لرفاقه وكأنه

يقول لهم (انظروا الآن إلى أي حد سأثير غضبه وحنقه! .) .

وتجمّع العبيد يمدون طرفهم من فوق سياج المرعى! وتسلق (الشيطان) شجرة سامقة حيث استقر فوقها وراح يرقب ما سوف يعمله (ألب) خادمه ورسوله . !

وتهادى السيد مع صحبه يعرض عليهم شياهه وحملانه . . . وانثنى يقول لهم وقد رنّ في صوته جرس الإعجاب والزهو : (إنها جميعاً كريمة نادرة، ولكن بينها كبشاً أصوف أعقص القرن ـ لا يقدر بمال ـ أعتز به كما أعتز بمقلتي . !) .

وشاع الاضطراب بين حشد الأغنام، فانطلقت تعدو إلى جهة أخرى من المرعى، فلم تنهز للزائرين سانحة لرؤية ذلك الكبش الذي نوه صاحبه بجلال قيمته وعظم شأنه . . .

ولم تكد تستقر الشياه في مكانها حتى أثارها (ألب) من جديد فعادت تجري إلى كنف آخر، وهي تضطرب فيما بينها، وفوَّت على الزائرين نهزة اجتلائها وتبيُّن الكبش. . فلم يجد السيد بداً ـ وقد أدركه العناء وبرح به الإعياء ـ من أن يدعو (ألب) قائلاً: (أرجوك أن تحول بين ذلك الكبش الأعقص القرنين وبين الهرب وأمسك به معتنياً حتى تتاح لنا رؤيته)!

ما كاد السيد يقول ذلك، حتى انطلق (ألب) بين الشياه كالأسد الذي يسعى بين رعيل من الظباء!. وقبض على صوفة الكبش في عجلة وتناول رجلاً من أرجله فلواها في شدة حتى تهشمت عظامها وصارت له قعقعة الغصن اليابس حينما بطؤه الإنسان. . لقد حطم ساقه وجعله يخر على الأرض وهو يئأج ويثغي في ألم. . ثم لم يلبث (ألب). أن

أمسك برجل أخرى وحاول أن يلحق بها ما أصاب سابقتها!

فصاح الزائرون في جزع، وهتف العبيد في هيعة وفزع. وطرب الشيطان وهو قابع في مكانه على الشجرة، وهلل فرحاً لما رأى من نجاح خادمه وهو يسعى لإثارة سيده! وتقطَّب جبين السيد وعلتْه كآبة سوداء تنذر بعاصفة هوجاء، وزمهرت عيناه وقد اتقد فيهما لهيب الغضب والحنق والسخط. . وقد كاد أن ينشق من الغيظ. . بيد أنه طأطأ برأسه ولم ينبس ببنت شفه. .

ران الصمت ـ ولكنه صمت رهيب ـ على الأضياف وعلى العبيد وقد تعلقت أنفاسهم يترقبون ما سوف يتمخض عن هذه الجناية على الكبش المسكين الذي لا يُلفى له نظير!

وبعد هنيهة من السكون، هز السيد كتفيه وكأنه قد تخلص من حمل ثقيل كان يجثم على قلبه. . . ثم لم يلبث طويلا حتى رفع رأسه ومد بصره إلى الأفق البعيد مستغرقا في فكره لا يريم. !

وبغتة. ! غاب التقطب عن صفحة جبينه وانفجرت أسارير وجهه وهدأت نفسه وقد عصف بها الاضطراب. . . ونظر إلى (ألب) في عطف وعلى ثغره ابتسامة عذبة. . . وقال في صوت رقيق شاعت فيه الوداعة والطمأنينة:

(إيه. . . يا ألب. . . لقد أغواك صاحبك الشيطان بإثارة غضبي ولكني سوف أخيّب مسعاه وأثير غضبه هو. . . فلست بحانق عليك ولا ساخط منك. . . إنك لتخشى عقابي ويداعب نفسك أمل في أن أعتق رقبتك! . فاعلم ـ إذن ـ أني لن أمسّك بسوء،

كما أني ـ أمام هؤلاء الأضياف وتحت سمعهم وبصرهم ـ أطلق حريتك . . . فاذهب أينما شئت . . . فأنت حر من هذا اليوم . ولك أن تحمل معك ما تود من ملبس وطعام .)

وانثنى السيد عائداً مع رفقته إلى داره في هدوء وبشر أما الشيطان ـ وقد باء مسعاه بالخسران المبين ـ فقد هوى من فوق الشجرة . وغار في الأرض . . .

obeikandl.com

بشر وشياطين

ما كاد الصبح يتنفس، وتخفق جنبات الكون بالحياة. . حتى هرع الفلاح الفقير يغذ الخطى إلى حقله. . . وقد بكر في غداته يروم الحرث والفلح. . . ويحمل معه كسرات يابسة من الخبز ليفطر ثمة بها. . .

فلما هيأ محراثه وربط إليه حصانه. . . علق ثوبه ـ وقد أودعه كسرات الخبز ـ إلى شجيرة دانية. . . وانطلق يشق أديم الأرض ويقلب الترب. . . حتى إذا ما تصرمت ساعات الصبح، وتراءت الضحى وأدركه العناء، وتبدى الإعياء والسغب على حصانه. أطلقه في سبيل الكلأ. . . وانثنى هو إلى شجيرة يبتغي الكسرات يسد بها جوعه الذي يبرح به. . .

فما إن بسط ثوبه حتى تـولاه العجـب . ! إذ ألفى الخبز قد اختفى منـه . . . فقلـب الثـوب بـين يديـه وراح يهـزه ، ولكـن عبثـاً ! . فلـيس للخبز من أثـر . فقـال ـ يحـدث نفسـه ومـا زال الشك يتوزعها ـ (عجباً ! ! . . إن هـذا غايـة في الغرابة ، إني لم ألمح أي إنسان هذه الصبيحة ! . لعل أحدهم كان هنا ، وأخذ معه الخبز . !) .

أجـل لقـد أخـذه واحـداً مـن الشـياطين الصغار ، بينما كان الفلاح مستغرقاً في عملـه . وكـان في ذلـك الحـين قاعـداً خلـف الشـجيرة يترقب مـا سـوف يتفـوه بـه الفـلاح مـن لعـن وسباب . . .

فاض قلب الفلاح بالأسف وألم بـه الضـيق لضياع الخبز الذي أعده لفطـوره ، بيـد أنـه مـا لبث أن ارتفـع صـوته في هـدوء : (ليسـت ثمـة حيلة . . . وعلى كـل حـال فلـن أقضـي مـن

الجوع! . وإني أحسب أن من استولى على الخبز أشد مني حاجة إليه . . . فهنيئاً لمن أخذه! .) .

ومضى إلى جدول . . فرشف منه بعضاً من الماء ينقع به غلته . . ومال يستريح من عناء العمل ومن قرصة الجوع . . . وبعد حين أسرج جواده وقيده إلى المحراث وعاد يقلب به صفحة الترب من جديد . . .

فطأطأ الشيطان الصغير برأسه . . . وقد ركبه الخجل والألم لإخفاقه في حمل الفلاح على أن يزل لسانه ويشرع في سبيل الخطيئة . . وانثنى إلى أستاذه الأكبر (إبليس) يروي له ما حدث! وكيف أنه أخفى عن الفلاح الفقير البائس كسرات الخبز فلم يحمله هذا على أن يتلفظ بكلمات السوء . . . بل قال وهو قرير النفس (هنيئاً لمن أخذها . !) .

فصاح فيه (إبليس) . . . وقد تملكه الغضب وزاد تلهب عينيه وكأنهما جمرتان وسرى الحنق والسخط إلى نفسه : (إنه خطؤك أنت . . . فلست تفقه ما ينبغي عليك أن تعمله . . . فبهذه الطريقة سوف يعيش الفلاحون وأزواجهم وذريتهم سعداء في راحة وهناء . . . يجب عليك أن تبث الضغينة وتنفث فيهم البغضاء وتفسد قلوبهم وتثير الحقد في نفوسهم . . . فهذه رسالتنا منذ أن خلق البشر . . . انطلق ثانية . . . وإني لأمهلك ثلاث سنوات لتصلح ما أتيته من خطأ . . . فإذا عدت بعدها ولم تفلح في أن تدع الشر ينساب في قلب ذلك الفلاح ، فسوف أغرقك في الماء المقدس) .

فارتعدت فرائص الشيطان الصغير من الفرق والهلع ، وهو يرى أستاذه الأكبر يتوعده

بالثبور والعذاب الأليم . . . فغاص في باطن الأرض، وهو يجهد ذهنه ويعصره بحثاً عن حيلة توغر قلب الفلاح، وتدفع عنه غضب إبليس . . . وما أرهبه من غضب! . فراح يفكر ويطيل التفكير حتى عثر على خطة بارعة .

فانقلب في شكل واحد من بني آدم . . . وتمثل بشراً سوياً . . . وذهب إلى الفلاح حيث سأله عملاً بأجر رخيص . . . فلم يجد هذا بأساً في أن يلحقه بخدمته ليكون له عوناً في زراعته . !

وفي السنة الأولى أشار على الفلاح بأن يزرع قمحاً في أرض غدقة جرداء ذات جدب ومحل . فعمل الفلاح بمشورته، وبذر قمحه في تلك الأرض السبخة . . . فلما انقضى الحول ـ وكان ذا صيف صيهد شديد الحر ـ لفحت

الشمس غلال الفلاحين الآخرين فأحرقتها . . دون قمح ذلك الفلاح فقد نما كثيفاً، وغلظت سنابله ودحس حبه . . . ففاض عن حاجته بعد أن أترعت خزائنه وامتلأت . . . فألقاها جانباً . . .

فلما حان موعد الزرع من جديد أخذ الشيطان يزين له أن يبذر القمح هذه المرة في سفح الجبل . . . فرضخ الفلاح لمشيئته . . . بيد أن الصيف في هذه السنة كان طلقاً ذا ريح سجسج . . . فتلفت غلال الآخرين وعفنت ولم تجدل لها سنابل . . . أما الفلاح فقد تأتى له حصادٌ طيب أبلغ في الوفرة من سابقه . . . فحار الفلاح فيما يفعله بكل تلك الزيادة . . .

وحينئذ أوحى إليه الشيطان كيف يستخلص الخمر من الحنطة فينقعها حيناً ثم يقطرها حتى يبلغ منها الراح فيعتقه ثم يشربه . . .

فراح الفلاح يقطر الخمر . . . ويودعها في دنان . . . ثم يدعو رفاقه لينهلوا منها معه حتى ينهلهم الثمل والسكر . !

عاد الشيطان الصغير إلى أستاذه (إبليس) يحدثه بما فعل في زهو وخيلاء . . . فأخبره أستاذه الأكبر بأنه سوف يرافقه ، فيرى بعينه ما وفق إليه تلميذه ورسوله . . .

فلما بلغ دار الفلاح ألفى هذا قد جمع حشداً من صحابه وجيرته يدعوهم إلى الشراب وكانت زوجته تدور عليهم بالقداح ، فينهلون منها ويعلون ، وبينما هي تمد يدها ببعض الشراب إلى واحد منهم . . . تعثرت قدمها فهوت على الأرض وتحطمت إحدى الدنان .

فاحتدم غيظ الفلاح ، واستشاط غضباً على زوجته . . . وانطلق يعنفها ويلعنها : (ما هذا أيتها الكسيحة الحمقاء؟! هل عميت حتى

تهرقي هذه الخمر النفيسة على الأرض؟! اغربي عن وجهي. لعنة الله عليك!..).

فلكز الشيطان الصغير أستاذه (إبليس) في جنبه بمرفقه وهو يقول في صوت رن فيه جرس الانتصار والزهو: (انظر... هذا هو الرجل الذي لم أتمكن من إثارة غضبه حينما كان الجوع يصرخ في أمعائه... وقد ضاعت منه كسرات الخبز!..)

وقام الفلاح يناول الخمر أضيافه... وما زال لسانه يجري باللعن والسب على زوجته. وحينئذ دلف إلى الدار أحد الفلاحين، وهو عائد لتوه من حقله. فرأى القوم ينهلون الخمر... فحدثته نفسه بأنه واجد عندهم بعض الشراب يبعث الراحة في نفسه، وقد أنهكه التعب وأضناه العمل... فجلس إلى أحد المقاعد وراح يتلمظ القطرة من الشراب.

ولكن صاحبنا الفلاح ـ بدلاً من ان يجود عليه ببعض الخمر ـ قال له في صوت أجش شاعت فيه الغلظة: (ليس عندي شراب لكل عابر سبيل!.. فتفضل بمغادرتنا).

فترسمت على شفتي (إبليس) ابتسامة.. بيد أن الشيطان الصغير ما لبث أن همس في مسمعه: (انتظر بعض الوقت! وانظر ما سوف يفعلون!..).

نهل الرفقاء الأغنياء مع صاحبهم الفلاح، وجرعوا من الصهباء ما طاب لهم، ولذ لمذاقهم... وبدأت تسري بينهم أحاديث النفاق والخداع، وتجري على ألسنتهم ألفاظ السوء والنميمة... وتطير بين شفاههم كلمات الملق والمداهنة والرياء.

فأصغى (إبليس) لما يقولون... وسره ما رآه من نبوغ تلميذه الشيطان... وقال (إذا

كـان هـذا الشـراب يحملـهم علـى أن يتبـادلوا أحاديث المكر والخداع كما هي خلال الثعالـب فإن ذلك يجعلـهم عجينـه طيعـة في أيـدينا نحـن الشياطين! .) .

فأجابه الشيطان الصغير : (دعهـم يتنـاولون زقاً آخر من هذه الخمر . . . ثم ارقب ما يكون من أمرهم . . . إنهم الآن يبصبصون بأذنـابهم كالثعالب، ويتماكرون في دهائهـا ولكـن بعـد حين سوف ينقلبون إلى ذئاب وحشية! .)

وزع الفلاح على الأضياف كؤوسـاً أخـرى من الخمر فراحوا يعبون منها في نهم . . وبدأت أحـاديثهم ترتفـع وتخشـن . وتنسـاب في رنتهـا غلظـة ووحشـية . . . فبعـد أحاديـث الملـق والريـاء، راحـوا يتقـاذفون بألفـاظ السـباب والشتائم، ويزمجرون في أصوات مخيفـة ويلطـم

كل منهم الآخر على أنفه ويصفعه على وجهه واشتبك معهم كذلك الفلاح صاحب الدار . .

فمد الشيطان الأكبر طرفه إلى ذلك، وقد بلغ منه السرور والبهجة مبلغاً عظيماً . . . وراح يردد (هذا عظيم . . . هذا عظيم!) ولكن العفريت ما لبث أن قال له (انتظر قليلاً فثمة ما هو أعظم من هذا . . . ترقبهم حتى يُفرغوا في أجوافهم دناً ثالثة . . . فينقلبوا من ذئاب وحشية تتلاطم وتتصافع، إلى خنازير لا تدرك ولا تعي . . .)

تناول الفلاحون دناً ثالثة . . . فارتفع لجاجهم وعطعطتهم وهم يلغطون كالبهائم التي لا تملك إحساساً ولا شعوراً. فأخذوا يصيحون دون أن يعرفوا سبباً لصياحهم ولا يصغي أحدهم للآخر!

وبـدأ الحفـل يشـرف علـى منتهـاه . . . وانطلق السكارى فرادى ومثنى وثـلاث . . . تعلو صيحاتهم الحيوانية وصـراخهم الوحشـي في هدأة الدجى فيمزق سـكونه في رهبـة تبعـث الرعب! .

وهم الفـلاح يـودع أصـدقاءه . . . ولكنـه سـقط في بركـة مـن المـاء الضـحل . . فـتلطخ جسـده وثوبـه بالوحـل مـن هامتـه إلى أخمـص قدمه . . فنفلت يلعن ويسـب، وهـو قـابع في مكانه كالخنزير . .

قهقه (إبليس) عالياً . . وعـاد يُطـري نبـوغ تلميذه ثـم قـال لـه : (لقـد أمكنـك أن تصـلح خطـأك حـين أخفيـت الخبـز عـن الفـلاح . . وفزت بالنجاح فيما اختبرتك فيه . .

ولكن خبرنـي كيـف يُركـب هـذا الشـراب الساحر . . لابد أنك وضعت فيه خلاصة مـن

دماء الثعالب . . وأضفت إليه دماء الذئاب ثم مزجتها بدم الخنازير . . ذلك ما جعلهم يتماكرون ويتملق بعضهم بعضاً في أول الأمر كالثعالب! . ثم يتضاربون كالذئاب . . ثم يصيحون كالخنازير التي فقدت إحساسها ومشاعرها)

فأجابه الشيطان الصغير : (لا يا سيدي الفاضل! . ليست هذه الطريقة التي اتبعتها في عمل هذا الشراب . . . كل ما فعلته هو أني لحظت أن الفلاح توفر لديه القمح وزاد عن حاجته! .

إن دماء الحيوانات والوحوش كامنة في عروق الإنسان منذ أن فُطر . . فطالما عنده ما كاد يكفي حاجته من الطعام والخبز . . ظلت هذه الدماء ساكنة حبيسة . . ولذا لم يغضب الفلاح حينما سرقت منه كسرة الخبز . !

وحينما توفر لديه القمح وراح يسعى إلى وجوه جديدة يتنعم فيها بهذا الوفر فدللته على متعة عظيمة. . هي الخمر فلما أخذ يقلب فضل الله وخيره عليه. . . إلى هذه الخمر ليتخذها متعة لنفسه، انطلقت دماء الثعالب ودماء الذئاب ودماء الخنازير من سكونها وراحت تعبث بنفسه وتعبث بعقله. . ولو أن الإنسان داوم على الشراب! لظل حيواناً وحشياً طيلة حياته. . . إن الرغد من أسباب الرذيلة!.).

فامتدح إبليس تلميذه الشيطان الصغير وأثنى على براعته وعفا عما بدر منه سابقاً من ذنوب. . . ورقاه إلى رتبة أعلى في دنيا الشياطين!

الملك والناسك. . .!

زعموا أن ملكاً من ملوك القرون الغابرة الأولى. قيل له أن الفشل والإخفاق لن يملكا إليه سبيلاً، إذا ما أدرك دواماً خير الأحيان للانطلاق في العمل الذي يروق لباله ويعن لخاطره وإذا ما ألم بأجدر الناس بالإنصات إليهم والإصغاء إلى حديثهم. . . ومن هم أولئك الذين ينبغي عليه أن يجانبهم ويرغب عن مجلسهم! . . . وإذا ما تناهي علمه إلى معرفة أحق الأشياء بالعمل وأخلقها بالتحقيق فأمر الملك رجاله بأن يذيعوا في آفاق مملكته، أن كل من يشير على الملك بخير الأوقات للعمل وأجدر الناس بالإنصات والصحبة وأفضل الأشياء وأحقها بالعناية والرعاية سوف يجازى جزاء حسناً ويحظى بهبة سنية من لدنه. . .

وأقبل العلماء وأهل الخبرة والتجربة من كل فج على الملك يتنافسون ويتسابقون يجلون له ما غمض عليه ويجيبونه على ما سألهم إياه. بيد أنهم تباينوا في آرائهم وتعارضوا في أقوالهم واختلفوا في مشورتهم. فقال بعضهم ـ جواباً على السؤال الأول ـ أن ليس ثمت سبيل إلى معرفة خير الأحيان إلا بتسطير لوحة تسجل عليها الأيام والأشهر والسنون، ولا يسير المرء في شئون الحياة إلا وفق نظامها. وبهذا ينجلي للمرء أي الأوقات خير من الأخرى وقال بعضهم إن ذلك لا يتأتى إلا بالفطنة واليقظة لما مضى ولما يجد من الأمور. فيتعرف على خيرها وأبلغها أهمية فيبتدره في حينه. وقال فريق منهم إنه مهما توخي الملك الدقة والدقة والبراعة في معرفة أجل الأوقات، فلن يبلغ مبتغاه. فمن أشق الأمور وأعضلها على الرجل

الواحد أن يقرر الخير فيما يتراءى له من الأوقات. . . وعليه أن يعقد مجلساً من أصحاب الحكمة في دولته فيلقى منهم عوناً صادقاً على تحديد الوقت اللائق الموفق.

واختلفت آراؤهم على السؤال الثاني. فأجابه البعض بأن أجدر الناس بالرفقة والإصغاء هم أهل الشورى والحكمة، وقال آخرون بأنهم رجال دين والأطباء. . . بينما رجع البعض أن الجند هم أفضل من يستفيد المرء من قربهم. . . أما عن السؤال الثالث فرأى جمع منهم أن أحق الأشياء بالرعاية هو العلم. . . ومال آخرون إلى إنه الحذق والبراعة في فنون الحرب والقتال. وارتأى بعضهم إنه الفناء في عبادة الله عز وجل وتأدية فروض الدين على أكمل وجه. . .

فلما استبان للملك أنهم لم يستقروا على رأي صائب راجح منع عنهم عطيته . . . وعقد في نفسه عازماً على أن يتوجه إلى ناسك ذاعت شهرته وطبقت حكمته كل أفق بعيد . . يستلهمه النصيحة ويستوحيه المشورة . . . وكان ذلك الناسك يتعبد في جوف غابة لا يبرحها أبداً . . . ولا يلقى من الناس إلا الفقراء والمعوزين . فأحاط الملك نفسه بثوب بسيط ، ليس عليه من ظواهر الملك شيئاً . . . وترجل عن جواده وخلف حرسه على مبعدة وانطلق وحده . . . فلما أدرك الناسك ألقاه يفلح الأرض أما صومعته . . . وحينما أبصره الناسك بادره بالتحية ، وأثنى إلى فأسه يضرب بها أديم الأرض . . . فكانت الضربة التي يهوي بها فيقلب الترب تستنفد ما بقى في جسده من قوة ، وتجعله يبهر من الإعياء وينهج

من التعب. . . فقد كان شيخاً ضعيفاً وهنت عظامه ووهت قواه. . . !

فدنا الملك منه وأفصح له عما في نفسه قائلاً: (أيها الناسك الجليل. . . لقد أتيت إليك ـ عن نأي ـ أروم جوابك عن أسئلة ثلاثة: (أولهما: كيف يتاح لي أن أعلم خير الأوقات لأنجز خير الأعمال؟)، (وثانيهما: أي الناس أولى بالصحبة وأجدر بالاهتمام؟)، (وثالثهما: ما هي الأشياء التي تستوجب مني العناية وتستحق التفرغ لها؟). فأصغى الناسك إليه منصتاً، بيد أنه لم ينبس ببنت شفه جواباً. وبصق في راحتيه وعاد ينبش الأرض بفأسه وهو يفلحها من جديد. . . فارتفع صوت الملك ـ وقد لمح ما على الناسك من دلائل الضعف وظواهر الوهن: لقد بلغ التعب والإعياء منك مبلغاً. . . فناولني الفأس،

أتولى عنك الإفلاح حيناً . . . !) فلما هوى الملك بالفأس إلى الأرض مرتين، رفع رأسه إلى الناسك، وسأله ثانية جواباً على ما بسطه له وصارحه به . . . فلم يتلفظ الناسك بشيء، بل مد ساعده إلى الملك يبتغي الفأس قائلاً: (استرح قليلاً، ودعني أوالي العمل برهة!) ولكن الملك رغب عن أن يعطيه الفأس، وعاد يحتفر الأرض.

تصرمت ساعات اليوم ومال ميزان النهار وتولى الضياء عن صفحة الكون . . . وراحت الشمس تتوخى سبيلها إلى المغيب في خمرة موردة وراء الأشجار السوامق . . . فألقى الملك الفأس من يده وهو يقول: (لقد أتيت إليك أيها الناسك الجليل أبتغي جواباً لأسئلتي الثلاثة! فإن كنت لا تود أن تجيبني عليها فخبرني . . . لأنقل إلى داري!) فقال الناسك

وهو يمد طرفة إلى الأفق (ثمة من يعدو! فدعنا نرى من يكون!) فتلفت الملك وراءه. . . فالتقى طرفه برجل ذي لحية كثة يركض نحوهما! . . . وقد أمسك يديه على بطنه، والدم يتفجر خلال أنامله. فلما بلغ مكان الملك هوى أمامه على الأرض وهو يئن ويتأوه في وحدة وألم. . . وقد تولاه الإغماء. . . فراح الملك والناسك ينضوان عنه ثيابه. . . فألقيا في بطنه جرحاً غائراً في الأمعاء. . . أخذ الملك يغسله بالماء. . . ويضمده بمنديله ثم برباط أتاه به الناسك من صومعته. . . بيد أن الدم لم ينقطع سيله، فعاد الملك يغير الرباط الملطخ بالدم بآخر أقتطعه من ثيابه. . . فلما توقف فيضه عن الجريان والترف عاد إلى الرجل الجريح رشده وصوابه وأفاق من غشيته. . . وطلب بعضاً من الماء فوافاه الملك بما سأله إياه.

وكانت الشمس حينئذ قد هوت كالجمرة خلف الأفق وغابت عن صفحة السماء. . . وشاع البرد في كل مكان. . . فاستعان الملك بالناسك على رفع الرجل وحمله إلى داخل الكوخ حيث استقر في الفراش وأغمض جفونه وراح يغط في وسن هادئ وسبات عميق! وارتمى الملك في ركن من الكوخ وقد أعياه العمل وأضناه العناء والكدح فأغرق هو الآخر في النوم.

حينما استيقظ الملك في صبيحة اليوم التالي، كاد إلا يذكر أين مكانه، ولا يعرف ذلك الرجل الملتحي الذي يقبع في فراشه يحدق فيه ويرنو إليه بعينين نفاذتين. . . قال الرجل ـ وقد أحس أن الملك بدأ يستعيد وعيه ويفيق من نومه وراح ينظر إليه ـ (أضرع إليك أن تشملني بعفوك!) فأجابه الملك في رنة عجب: (إني لا

أعرف من أنت . . . فعلام ترجو عفوي؟!) ـ (أنت لا تعرفني بيد أني أعلم من أنت! . فأنا ذلك العدو الذي أقسم غير حانث على أن ينزل بك نقمته وعدوانه جزاء ما أعدمت أخاه وانتهبت داره وشردت أهله . . . فقد تناهى إلى علمي أنك قاصد إلى الناسك . . . فبيت النية وعقدت العزم على أن أنهز هذه البادرة وأقتلك وأنت في سبيل العودة . . . ! ولكن اليوم تقضي ولم أستبن لك أثراً . . . ! فبرزت من مكمني لأنقب عنك . . . ! فلمحني رجالك وتعرفوا علي، وأصابوني بجرح بالغ في بطني . . . لدق أفلت منهم فتلقتني براثن الموت، وكدت أن أسلم الروح لولا أو توليتني بعنايتك فآسيت جراحي وآويتني في هذا الكوخ . . . لقد كنت متعمداً قتلك فأنقذت حياتي . . . جزيت خير الجزاء . . . والآن لو

امتد بي الأجل فوف أقوم على خدمتك ـ إن رضيت ـ عامر القلب بالإخلاص لك كعبد من عبيدك الأوفياء . . . وكذلك أبنائي وأهل بيتي فقد قيدت عنق ربهم بمعروف لن ينساه فأسألك أن تعفو عني وتغفر لي!) فاستخف الملك الفرح والبشر وطربت نفسه وطاب قلبه بما رأى من السلم والوفاق الذي عقده مع عدوه في بساطة وهدوء فكسبه صديقاً وفياً. فلم يعف عنه فحسب بل أخبره بأنه سوف يبعث إليه بخيرة أطبائه وخدمه ليقوموا على العناية به ووعده بأن يرد عليه ماله المسلوب ويعيد إليه ملكه المغصوب.

غادر الملك صاحبه الجريح وأخذ يتلفت في ساحة الكوخ باحثاً بعينه عن الناسك ليرجوه من جديد أن يجيبه على أسئلته. فألفاه جاثياً على ركبته يغرس الحب في النقر التي احتفرها

البارحة فدنا منه ودعاه قائلاً: (إني أرجوك لآخر مرة أن تجيبني على ما سألتك إياه. . . أيها الحكيم الجليل). . . فأجابه الناسك وهو ما يزال جاثياً على ساقيه الرقيقتين (لقد أجبت على ما تود!!) فتساءل الملك في دهش وعجب (كيف أجبت!؟ وما الذي تعنيه) فرفع إليه الناسك رأسه وعلا ثغره ابتسامة، وقال في صوت شاع في الهدوء والرزانة: (ألم تر أنك لو لم تترفق بي وترحم ضعفي بالأمس ولم تهيئ لي هذه الحفيرات بل انطلقت في سبيلك لهاجمك ذلك الرجل وبلغ منك مقتلاً. . . وحينئذ كنت تقعد نادماً تأكل قلبك الحسرة وتتمنى لو أنك مكثت لا تبرحني. إن خير وقت كان في ذلك الحين الذي كنت تحتفر فيه الأرض. . . وكنت أنا أولى الناس باهتمامك ورعايتك. . . وكان أفضل عمل أديته هو

الإحسان إلى. . ! وبعد حين أتانا ذلك الرجل يسعى راكضاً. . . فكان أدق وقت هو ذلك الذي توليته فيه بعنايتك وحدبك. . . إذ لو إنك رغبت عن معونته لقضى دون أن تحظى منه بسلام وحمد ولذا كان هو أجدر الناس وأحقهم بالاهتمام والعطف وكان ما أديته له من معروف من أروع أعمالك وأجمل فعالك. فأعلم إذن لأن ليس ثم إلا وقت واحد يستحق منك الاهتمام ذلك هو (الآن) الذي تكون فيه. فهو الآونة الوحيدة التي تتملك فيها قوتك وقدرتك، وأحق الناس بأن تعنى به هو من يكون معك فأنت لا تدري إذا كنت تعامل غيره بعد ذلك أو يكون هو آخر من تعامل! وأجل الأشياء وأعظمها شأناً هو أن تبادر بالخير والمعروف إلى غيرك فلهذه الغاية السامية فطر الإنسان في هذا الكون.

إلياس

يحكى أنه كان يعيش في بلدة واحد من البشاكرة يدعى (إلياس). . . قضى أبوه نحبه بعد أن متع ناظريه بزوجة ولده ـ دون أن يخلف له شيئاً من الأرض يأتي له بريع من الرزق يعيش هو وامرأته عليه. فلم يدع له سوى سبعة من الخيول والأفراس وبقرتين وعشرين رأساً من الغنم. . .

فشمر إلياس عن ساعد الجد. . . وكان ماهراً في رعاية الحيوان بارعاً في تربيته ذا جلد ومثابرة، فراح يتولى ماشيته بعنايته، ويهيئ لها من المرعى والمأوى كل ما يدخل في طوقه. . .

وكان ـ هو وزوجته ـ يعملان سحابة يومهما وجنحاً من ليلهما. . . ينهضان على تبكير من الغسق. . . وهما آخر من يأوي إلى

مضجعه في العشي. وأقاما على تلك الحال حتى بارك الله في ماشيتهما، وضاعفها. فزادت وتكاثرت عاماً أثر عام، وأتيح لهما وفر فيما يملكان من ثروة ومال. . .

وحينما وافت السنة الخامسة بعد الثلاثين على تمها صار لإلياس من الخيول مائتان، ومن البقر مائة وخمسون ومن الغنم ألف ومائتان. . فأستأجر رجال يحملون عنه عبءَ الرعي ويقومون على معونته. . . واتى بأجيرات من النساء يحلبن له ماشيته ويخضون ألبانها ويستخلصون منها الزبد والسمن والجبن (والكميس)

فأيسر (إلياس). . . وأخصب جانبه وأرغد عيشه، وراح يعيش في بلهنية ودعة. . فعظم مقامه بين جيرته، وذاع شأنه بين من يقنطون في واديه. وأخذ كل امرئ يغبطه

ويتحدث عنه ـ وفي نفسه حسد ـ (إن إلياس رجل بخيت ذو جد جلب عليه كل ما يراود أمل الإنسان من رغبات . . . فهو ـ دون ريب ـ سعيد بهذه الدنيا هانئ بها تقاطرت على (إلياس) جموع الزوار من كل حدب . . . فكان يتلقى كل واحد منهم بالترحيب والتكريم، وينحر لهم الخراف ويهيئ لهم موائد حافلة باللذيذ الفخر من الطعام والشراب ويقدم له ما راق لهم من (الكميس) والشاي .

كان لإلياس ولدان وبنات زوجهم جميعاً . . وحينما كان في أيام فقره وعسره كان هؤلاء الأبناء عوناً لأبيهم في رعاية قطعانه وحتى إذا ما زخرت خزائنه بالمال سرت إلى نفوسهم عوامل الفساد والتلف . فأقبل واحد منهم على الخمر يعب كؤوسها حتى يضل منه الوعي ويحمل

مخمورا إلى داره. ولم يلبث أن قتل في عراك بين أبناء الحي من ذوي النفوس الشريرة.

أما الآخر فقد تزوج بامرأة رقيعة خرقاء، جعلت تسعى بالباطل بين الولد وأبيه حتى أوغرت نفسيهما وأضغنت قلبيهما. فافترقا بعد أن تخلى (إلياس) لأبنه عن جواد وقطيع من الغنم.

لم ينقض حين على ذلك حتى تفشى المرض بين الماشية، فأورد كثيرا منها مورد الهلاك والفناء. . . وساء الحصاد في هذا العام ولم تأت الأرض إلا باليسير. . . فحصد الموت بعض ما تبقى من الجوع. ثم أغارت قبائل (القرغيز) على أملاك (إلياس) فاستحوذت على البقية الباقية من حيواناته. . .

وبين ليلة وضحاها أصبح إلياس، فإذا بأمواله قد عبثت بها يد الزمان، وأدبرت عنه

الدنيا وهي ساخرة في حين ضعف فيه جسده ووهنت قواه . . . فباع أثاث داره ثم لم يلبث أن باعها هي الأخرى .

وبات هو وزوجته ـ وكانت تدعى (شام شماجي) ـ على الطوى وليس لهما من موئل يأويان إليه ، فقد رحل ولدهما وزوجته عن البلدة ، وماتت ابنتهما منذ زمن بعيد . فلم يجد الزوجان إلى جانبهما في خريف العمر من يسعى عليهما بالقوت . . .

وكان لهما جار يدعى (محمد شاه) ليس بالغني وليس بالفقير بل يحيا حياة ذات رخاء ويسر . . . فعطف عليهما ورحم كبرهما إذ كان ذا قلب يفيض بالحب وعروق تنبض بالرحمة . فطاف بعقله ما كان عيه (إلياس) من كرم وجود . فقال له : ـ

تعال وأقم معي يا إلياس أنت وزوجك العجوز. . . وما عليك سوى أن تفلح حديقة البطيخ في الصيف، وفي الشتاء تطعم الماشية وترعاها. . . إذا وسع مقدورك هذا!! أما زوجتك الفاضلة (شام شماجي) فسوف تجلب الأفراس وتستخرج لنا من ألبانها (كميساً) طيب المذاق بديع الصنع.

وسأهيئ لكما من الملبس والطعام ما تقر به عيونكما وترومانه فإن أعوزتك حاجة بعد ذلك فخبرني بأمرها، وإني لأعدك بأن أتيحها لك ما وجدت إلى ذلك سبيلاً. . .

أقبل (إلياس) وامرأته على العمل في خدمة جارهما. ولعلهما صادفا في أول الأمر صعوبة، وشقت عليهما الخدمة. بيد أنهما لم يمكثا غير قليل حتى تعودا على ذلك، واستقر بهما المقام عنده يعملان له ما يسعهما. . .

وكان يتسرب الألم والرثاء إلى قلب (محمد شاه) حينما يبصر بهما بعد غناهما العريض وعلة منزلتهما، ينحدر إلى مثل هذه الحال. لقد حرز في نفسه هذا ولكنه أفاد منهما إذا أطلق لهما حرية الأمر، فلم يسعهما سوى أن يتفانيا في خدمته بإخلاص وجد

وذات يوم نزل في ضيافة (محمد شاه) نفر من ذوي قرابته وصديق له من رجال البحر فذبح (إلياس) لهم شاة وسلخها وبعد أن أنضجها على النار، بعث بها إلى الأضياف فأكلوا منها ما طاب لأنفسهم. . .

وبينما هم قعود على البسط الثمينة يتناقلون الحديث ويرشفون كؤس ا (لكميس) مر بهم إلياس ـ وقد فرغ من عمله ـ فلما أبصر (محمد شاه) قال لواحد من أضيافه: (هل لمح طرفك هذا الرجل الذي مر بنا منذ لحظات؟!)

فأجابه الضيف في عجب: (أجل. ! فما الذي يدعو إلى سؤالك هذا؟!)

ـ (لقد كان أغنى إنسان في هذه الناحية من الأرض!. إنه يدعى الياس. أما سمعت بذلك الاسم من قبل؟!)

ـ (لقد طرقت سمعي أخبار عنه مؤكداً. . إني لم أره قبل الآن ولكن شهرته ذاعت كل البقاع!.)

ـ (هذا حق. . بيد أنه الآن صفر اليدين ذو متربة وعسر. فهو يقيم معي هنا يعمل في أرضي ويرعى أغنامي، أما زوجته فتحلب ماشيتي وأفراسي!. .)

فأدرك الدهش ذلك الضيف ومط شفيتيه وهز رأسه وهو يقول: (الأيام دول من سره زمن ساءته أزمان. فبين عشية وضحاها يصير المرء من أعلى عليين إلى أسفل سافلين!

هل ترى المصيبة تقض مضجع هذا المسكين وتجعله يندب حظه على ما ضاع من بين يديه؟!)

ـ (ومن يدريك؟! إنه يعيش في هدوء وسكينة يحسن القيام بعمله) فعاد الضيف يقول: (بودي أن أتحدث إليه حيناً هو وزوجته، أفيمكنني هذا؟)

ـ (ولم لا؟!) وراح السيد ينادي على إلياس: (يا أبت. هيا اشرب معنا قدحاً من الكميس. وادع زوجتك إلى هنا كذلك.)

فدلف إلياس مع زوجته إلى الحجرة. . . وبعد أن ألقى تحيته على الأضياف جلس على قرب من الباب، وراح يتمتم بصلات خفية في صوت خفيف. . . أما زوجته فتجاوزت المكان إلى ستر في ركن منه حيث جلست خلفه مع سيدتها. . .

وقدم (محمد شاه) إلى إلياس قدحاً من أقداح (الكميس) فتناوله ولسانه يلهج بعبارات الشكر والحمد، وبعد أن تمنى للحاضرين صحة وعافية راح يترشفه على مهل، ثم وضعه جانباً. فقال له الضيف الذي كان يروم رؤيته. (حسن يا أبتاه. أحسب إن حديثنا سوف يثير في نفسك لواعج الحزن والأسف ويبعث في نفسك ذكرى ما كنت تتملكه من دور وضياع ومواش ذهبت هباء مع الريح. . لعلك آسف وضيق النفس بما أنت فيه الآن!

فوضحت على ثغر إلياس ابتسامة هادئة وقال في صوت رزين (لو إني أخبرتك ما هي السعادة، وما هي عثرة الحظ. . . لأثار ذلك دوافع الشك لديك في نفسك!. فيحسن بك إذن أن تسأل زوجتي. فكل ما في قلوب النساء

يجري طلقاً على ألسنتهن . . . ولسوف تنبئك عن بينة بجلية الأمر ! . .)

فاستدار الضيف نحو الستار . . وهو يقول : (هلا تخبرينا يا جدتي العجوز . . . كيف أن سعادتكم السابقة تقرن بما يكتنفكم الآن من بؤس وشقاء؟؟)

فأرتفع صوت (شام شماجي) من خلف الستار : هذا ما يدور بخلدي ! لقد عشت أنا وزوجي العجوز خمسين عاماً نسعى في سبيل السعادة وننقب عنها ، فلم ندرك لها أثراً . . . ولكنها الآن في هاتين السنتين الأخيرتين ـ منذ أن ودعنا الغنى ورفعة الشأن ، وأصبحنا نعمل كأجيرين بلغنا السعادة وعرفناها على حقيقتها وصرنا ننعم بها كل صباح ومساء . . . فلسنا نبغي أسعد من أيامنا هذه ! .)

فرانت الدهشة والعجب على وجوه الأضياف وكذلك صاحب الدار الذي قام فحسر الستار عن مكان المرأة العجوز وهي جالسة، وقد عقدت يديها على صدرها وراحت تتبسم لزوجها فابتسم هو الآخر لها.

وبعد أن مضت برهة من الصمت تعلقت فيها الأنفاس عادت تقول في صوتا الهادئ: (غني لا أحدثكم بغير الحقيقة. . . وما في قولي من مبالغة بل هو الحق الخالص. . . لقد أبلينا ربع قرن من الزمن ونحن نسعى إلى السعادة. . . وعلى قدر ما كنا أغنياء كانت محرمة علينا. أما الآن وقد صرنا أجيرين لا نملك من متاع الدنيا شيئاً أحسسنا بالسعادة التي لا نود بديلاً منها. . .)

فقال لها ذلك الضيف متسائلاً: (بالله خبرينا ما هذه السعادة التي تشملك أنت

وزوجك في إعسار كما بعد اليسر وادبار الدنيا عنكما بعد إقبالها عليكما؟!)

ـ (أصبت! . حينما كنا أغنياء كان لدينا من المشاغل ما يصرفنا عن إئتناس الزوج بزوجته وتآلف روحينا . وعبادة الله عز وجل . . . لقد كان الناس يفدون علينا فنسهر على خدمتهم وتوفير ما يثلج قلوبهم خشية أن تتناولنا ألسنتهم بالسوء ويتحدثون عنا بما نكره . . . فإذا ما رحلوا كان علينا أن نراقب عمالنا ومن يقومون على خدمتنا حتى لا تنزع بهم دوافع الشر إلى خيانتنا فيما نعهد به إليهم . . .

كما أننا كنا نحاول أن ننقص أجورهم ونفيد منهم أكثر مما نستحق . فارتكبنا الخطيئة الأولى .

ثم إننا كنا ـ إذا ما جن الليل ـ نبيت ونحن أيقاظ خشية أن تفترس الذئاب الوحوش بعض الأغنام أو يعمد فريق من اللصوص إلى سرقتها

في غفلة من حراسها. وننهض بين حين وآخر لنطمئن عليها. . . وغير ذلك مما كان ينشأ من المشاكل، ثم أضف إلى ذلك ما كان ينشب بيني وبين زوجي من شجار ونزاع. . . فهو يريد شيئاً وأنا أود ما هو ضده فنخطئ ثانية. . .

وهكذا كنا لا نكاد نتجاوز صعوبة حتى نقابل أخرى. . . ونستدبر خطيئة حتى نواجه ثانية فعشنا لا نجد إلى السعادة سبيلا!)

ـ (حسن. . والآن.)

ـ (الآن حينما. . أفيق أنا وزوجي (العزيز) في الصباح بعد نوم هادئ مطمئن لا ينغصه الخوف ولا الفزع. . نتبادل كلمات الحب وعبارات الود. . . وبدأنا نحيا في هدوء وسلام لا تعكر صفوة تلك الأسباب التي كانت تثير النزاع والشقاق بيننا.

ليس علينا من واجب سوى خدمة ذلك السيد الكريم الذي أحسن إلينا . . . فنحن نتفانى في العمل لصالحه . . . حتى لا يحس في وجودنا مضرة به أو ثقلاً عليه . . . ونتناول غداءنا هنيئاً مع أكواب (الكميس) . . . وقد توفرت لدينا الأخشاب التي نطعمها النار ونستمتع بدفئها إذا ما اشتدت وطأة البرد ويأتينا سيدنا بالثياب ذات الفراء التي تعوزنا .

أما الوقت فقد بتنا نجد فيه ما يتسع لحديث كل منا إلى الأخر في ود . . و . . غزل . . فنفكر في أنفسنا ونتعبد متقربين إلى الله نسأله الصفح والغفران عما ارتكبناه من الخطيئات . نعم لقد سعينا خمسين عاماً في سبيل السعادة فلم نجدها إلا الآن ! .)

فضحك الأضياف . . ولكن إلياس ما لبث أن قال لهم في صوت ذي جرس هادئ وإن شاعت فيه رنة العتاب :

(ليس ثمة مجال للضحك ! . أيها الرفاق . . فليس هذا الحديث مثاراً للضحك والهزل . . بل عبرة وعظة . . إنها حقيقة الحياة . . لم ندركها إلا حينما توج رأسانا المشيب . .

لقد كنا نحن كذلك سخفاء وحمقى حينما بكينا طويلاً على ما ضاع من ثروة وعلو شأن . . . ولكن الله ـ تعالت قدرته هدانا الآن إلى الحقيقة . . فما أجملها وما أجلها . .

إنا لا نذكر هذه الحقيقة لكم ابتغاء السلوى والعزاء لنا ولكن نجلوها على أسماعكم لهدايتكم وخيركم ! .)

فقال (الملاح) وقد اغرورقت عيناه بالدموع : (إنك لعلى حق يا إلياس . . إنه

حديث الحكمة والموعظة . . وقد جاء ذكره في الكتب المقدسة التي نزلها الله ليهدي بها عباده .)

وأمسك الأضياف عن الضحك . واستغرقوا في فكر عميق .

obeikandl.com

العمل والموت والمرض[1]

إنها الأسطورة من تلك الأساطير التي يؤمن بها (هنود جنود أمريكا) . . . ويتناقلوها خلفاً عن سلف! .

حينما فطر الله البشر ـ كما يقولون ـ جعل الإنسان في غير حاجة للعمل والسعي! . فما تعوزه دار يؤوي إليها ولا ثياب يلقيها على جسده يتقي بها لفحة الحر ونفحة القر . . . بل ما كانت تضطرب في نفسه رغبة إلى طعام ولا

[1] (هذه قصة الإنسانية من قديم الأزل. . وقصة البشرية منذ فجر التاريخ. . . تتجلى لنا فيها النوازع التي تضطرب بين انفس البشر، والعواطف التي تمور في قلوبهم، والنزوات التي تختلج في أفئدتهم. . تناولها تولستوي ببراعته البارعة الملهمة، وعقله الفذ الجبار - وقد راعه ما بلغته حال العالم من شر وفساد - فتلمس بين تجاربه البعيدة في الحياة، ودراسته العميقة للنفوس وحياً طريفاً صاغ منه القصة الرائعة. . . التي تتمثل فيها - على بساطتها - الدعوة إلى (الحب والخير) وهي دعوة طالما نادي بها تولستوي. بل ظل ينادي بها حتى أدركته منيته وقد بلغ الثمانين) (م. جميل)

شراب! . فامتدت بهم الحياة مئات من السنين . لا يعرف المرض إليهم سبيلا . .

فلما تجلي (الله) تعالى على الكون ـ بعد أن تصرمت حقب ودهور ـ لينظر خلقه كيف يعيشون . . ألفاهم ـ وقد حسب أن السعادة ضاربة بينهم إطنابها ـ يتشاجرون ويتضاربون . وراح كل منهم يعني بنفسه دون رعاية لأخيه . فساءت حالهم وفسدت دنياهم وحاق الشر بهم . . .

فحدث (الله) نفسه، وهو يتدبر صلاحية لهذه الحال: (إن الذي أوردهم هذا المصير تفرقهم، وعيش كل منهم على حدة!) فهيا الله أمور الحياة، وجعل من المستحيل على الإنسان أن يحيا دون أن يجد ويعمل!

فسخر عليهم الحر والبرد حتى يسعوا في طلب الملبس وبناء المسكن! . وسلط عليهم

الجوع حتى يفلحوا الأرض ويبرزوها ما ركزت فيها الطبيعة من خيرات ورزق ويخرجوا منها الثمرات فيتخذوا فيها غذاء لهم. . .

وانثنى (الله) يفكر: (إن العمل سوف يوحد بينهم ويجمع شملهم، فلن يستطيعوا كل منهم أن يعتمد على نفسه في صنع آلته وحمل أخشابه وبناء داره وغرس حقله وجني محصوله ونسج ثيابه بعد غزلها. . . وتهيئة طعامه!. أن ذلك سوف يجعلهم يدركون إنه ما دام الإخلاص سيدهم والود رائدهم في تعاونهم على العمل!. فسيضاعف الله ما يأتيهم به من الخير والنعم. ويعيشون في رغد وبلهنية. . . سوف يزيد ذلك من وحدتهم وتضامنهم في الحياة!.)

دارت عجلة الزمن، وتقضت الدهور سراعاً بعضها أثر بعض. . . وعاد (الله) يقلب النظر في صارت إليه حال الخلق. . .

ويري أن كانوا في عيشتهم سعداء أم ما برح الشقاء ينغص حياتهم. . . فوجدهم في حال اشد سوء مما كانوا عليه. . . فقد أقاموا يعملون معا ـ كما أرادهم (الله) فليس لهم من سبيل في الحياة غير ذلك ـ بيد أنهم تفرقوا شيعاً وأحزاباً وانقسموا على أنفسهم جماعات تحاول كل منها أن تحرم غيرها من العمل وتعوقها عنه حتى تنفرد به وحدها!.

فراحوا يهدرون أوقاتهم في نزاع لا نفع فيه وينهكون قواهم في صراع لا طائل منه. . فاضطربت أمورهم واختلت حالهم!. .

فلما رأي (الله) ذلك السوء الذي انحدرت إليه حال الخلق عزم على أن يهيئ أمور الحياة بحيث أن المرء لا يلم بالحين الذي توافيه منيته فيه. فيفاجئه الموت على غرة منه في أية لحظة.

ثم أوحي بذلك إلى الخلق. . وقال يحدث نفسه:

(إذا علم كل منهم أن الموت سوف يخترمه في أي حين. . داخلت قلبه الخشية، وأشفق أن يضيع ساعات العمر في شغب وعراك لا يرتد بفائدة عليه!.)

فلما آب (الله) ـ بعد أن طويت صفحات كثيرة من الزمن ـ ليراجع النظر في أمور الخلق، وكيف يعيشون. . ساءه أن يري الشر قد اتسعت هوته وأستفحل شأنه! فقد أفاد هؤلاء الذين وهبتهم الطبيعة قوة جبروتاً من الحقيقة الأبدية التي سنها الله للبشر، إلا وهي أن الإنسان عرضة للموت في أي حين. فسخروا أولئك الضعفاء وسلطوا عليهم نقمتهم، فقتلوا منهم كثيرين وراحوا يهددون الآخرين بالموت. .

أصبح هؤلاء الأقوياء ينعمون وذريتهم دون أن يعلموا شيئاً . . ثم ما لبثت السآمة إلى نفوسهم من البطالة والعطل أما أولئك الضعفاء فلا يبرحون يعملون فوق طوقهم ويتلمسون شيئاً من الراحة فلا يدونها ويتنسمون ريح السكينة فلا يصادفونها . . .

فأخذ كل فريق يضج بالشكوى ويحمل ألوانا من البغضاء وصنوفا من الحقد للفريق الآخر . . فازدادت الحياة سوء على سوء وتتابع الشقاء شرا أثر شر ! .

فلما أحاط (الله) علما بما حاق بالخلق ، عقد العزم على أن يراب الصدع ويقيم الأود . . فأخذ يتلمس وسيلة أخرى لذلك . . فلم يلبث أن سلط عليهم الأمراض والعلل . . وجعلها تشيع بين الناس فلا تذر واحداً منهم ! . .

وظن (الله) أن البشر إذا ما أعتقد كل منهم إنه عرضة لأن يخر صريع المرض ضجيع الفراش، فلسوف يدركون ما على الأصحاء من واجب الرحمة والعطف، ومد يد المعاونة إلى من برحت بهم العلة وأشتد عليهم السقم!. وحينئذ يلقون من جانب الآخرين شفقة ورحمة وعوناً. ! ومضي (الله)!

حتى إذا عاد لينظر حال الخلق، وقد تفشى بينهم المرض. . رأى أن السوء قد أستفحل أمره واستشرى شره. . فامرض ـ وقد ظنه (الله) جامعاً لهم موحداً بينهم ـ أدى إلى تفرقهم وتنافر بعضهم. .

فأولئك الأقوياء الذين يسخرون غيرهم من الضعفاء في العمل اضطروهم أيضاً إلى رعايتهم والعناية بهم حينما تنشب فيهم العلة أظفارها!. . بيد أنهم لا يسعون إلى معاونة

الضعفاء إذا ما مرضوا بل يبالغوا في إرهاقهم، فلا يتيحون لهم فترة من الراحة للعلاج والشفاء!.

وجعلوا لهم بيوتاً حقيرة في عزلة عنهم، يعاني فيها هؤلاء الضعفاء سكرات الموت، ويلفظون بين جدرانها أنفاسهم الأخيرة بعيداً عن القوم المنعمين، حتى لا يكدر منظر هذه المجموع التعسة الشقية ـ وقد أصابها المرض ـ متعة الأثرياء وبهجتهم!.. وحتى لا تتسلل إلى أجسادهم العدوى من هؤلاء المرضي المكروبين..

فقال (الإله) يحدث نفسه ـ وقد نفض يديه من أمور الخلق (إن كانت هذه طرائق والأسباب لا تجعل من البشر من يفطن إلى مستقر سعادته.. فلندعهم يدركونها من بعدد ما يعنون منها ما يعانون!.)

وخلى الله بين الناس وبين أنفسهم! .

عاش الناس حقباً طوالاً في بلاء مع أنفسهم، قبل أن يدركوا إنه ينبغي عليهم أن يكونوا جميعاً سعداء. . .

ففي القرون الأخيرة تجلي الخلق عن فئة من البشر. .

يعلمون حق العلم إنه يجب إلا يكون العمل كشبح مخيف لبعض الناس، وكغنيمة خالصة للبعض الآخر. . . بل يجب أن يكون مدعاة للتعاون لصالحهم، ومبعثاً لخيرهم وإسعادهم، وسبيلاً لوحدتهم وتضامنهم! . .

ويعلمون أن الموت، وهو سيف مسلط على قارب العباد في غير ميعاد! . . لا يلائمه إلا العمل الحكيم، فواجب كل إنسان أن يستفيد من سنوات حياته وأيامها وساعاتها بل

ولحظاتها التي يوهب إياها . . فيبذلها في الخير والحب والتأليف بين القلوب!

ويعرفون أيضاً أن المرض ـ بدلا من أن يكون سبباً للتفرقة وأداة للتنافر بين الناس ـ يجب ـ على الضد من ذلك أن يؤدي إلى تهيئة المجال للمحبة والمودة، والتعاطف والإيناس.

obeikandl.com

حبة من القمح كبيضة الدجاج!

بينما الصبية في لهوهم يعبثون ذات يـوم . . عثـر أحـدهم في ثلمـة في الأرض علـى شـئ عجيب فيه مشابه من حبـة القمـح . . بيـد أنـه كـبير في حجمـه حتـى كـاد أن يـداني بيضـة الدجاجة ! ! .

ومر بهم ـ وقـد استخفهم المـرح وتملكهـم الفرح بلقيتهم ـ مسافر مـن جـوّابي البقـاع . . فلما أبصر ذلك الشيء بين أناملهم، عوضـهم عنه بفلس وحمله معه إلى المدينة . . حيث باعـه للملك بمال كثير كعجيبـة مـن العجائـب الـتي تمخض عنها الزمن . . .

فدعا الملـك إلى مجلسـه أهـل العلـم وأولـي الحكمة وأرادهم أن يأتوه بحقيقة ذلك الشـيء . فانثنى العلماء إلى كتبهم يتفحصونها، وانقلب

الحكماء إلى عقولهم يستحثونها. ولكنهم لم يحيروا لهذا الشيء معرفة لماهيته وإدراكاً لحقيقته!. . حتى كان اليوم الذي طارت فيه دجاجة إلى عتبة النافذة حيث ترك ذلك الشيء العجيب عليها. . فراحت تضرب فيه بمنقارها حتى خلفت ثقباً في جانب منه!. ويومها أدرك العلماء أن ذلك الشيء ليس إلا حبة من القمح!.

فلما حملوا إلى الملك ذلك النبأ. . اشتدت حيرته وتزايد عجبه وأمرهم بالبحث في أي يحن من الزمن وفي أي بقعة من الأرض. كان الناس يزرعون مثل هذا القمح!

فعاد العلماء إلى كتبهم يقلبونها وانثنى أهل الحكمة إلى عقولهم يتروون من جديد. . ولكنهم باءوا بمثل ما كان نصيبهم في المرة

الأولى! . فذهب إلى الملك وفد منهم . . وقال له :

ـ ليس في قدرتنا الإجابة على ما تطلبه مولانا . ! فما حوت كتبنا نبأ عنه . . ولا انتهت عقولنا إلى فهم له . . ولكن في مكنة مولانا أن يسأل الفلاحين لعل بعضهم يعلم عن آبائه . . في أي حين وفي أي بقعة كان القمح يزرع في مثل هذا الحجم . ! .)

فأمر الملك أن ينبعث أعوانه في أرجاء البلاد وينتشروا في مختلف ربوعها . ويأتوه ببعض الفلاحين الذين بلغوا من العمر عتياً .

فلم يلبثوا بعد حين أن فازوا ببغيتهم . . فأحضروا إلى الملك رجل تقدمت به السنين فأحنى ظهره ثقلها . . فراح يتوكأ على دعامتين معروق الوجه، شاحب اللون مهدل العارضين مغضن البشرة . .

فناوله الملك حبة القمح . . . بيد أن كفافة بصره قصرت به عن رؤيتها . . . فراح يتحسسها بين أنامله الجاسية . فسأله الملك :

(هل لك في أن تخبرنا . . . أيها العجوز عن المكان الذي كان يزرع فيه مثل هذه القمحة؟ ! ونبئنا إن كنت قد اشتريت أو زرعت شيئاً مثلها في حقولك؟ ! . . .)

كان بسمع الشيخ وقر جعله عاجزاً عن الإصغاء إلى ما قاله الملك . . . بيد أنه لم يلبث أن أدركه في مشقة وجهد . فقال بعد أن مكث حيناً لا ينبس :

ـ (كلا . . . إني لم أزرع ولم أحصد مثلها قط في حقلي . كما أني لم أشتر أبداً شيئاً يشبهها . . . وحينما كنا نتبايع القمح كانت حبوبه صغيرة في مثل حجمها اليوم . . . غير

أنه يجمل بك أن تسأل أبي لعله سمعه قد وعى عن الفج الذي كانت تزرع فيه!)

فبعث الملك برجاله في طلب والد الشيخ. . فعادوا به وهو يمشي معتمداً على عصا غليظة. فلما ناوله الملك حبة القمح. . . قلبها بين يديه، وراح يمعن فيها النظر، وقد عجز الكبر عن أن يذهب بحدته! . . . فسأله الملك: (أما في قدرتك أيها العجوز أن تخبرنا عن المكان الذي كان يزرع فيه مثل هذه القمحة؟! وهلا أنبأتنا إن كنت قد اشتريت أو زرعت مثلها في حقولك؟)

لم يذهب الثقل بمسمع الشيخ، بل ما زال سمعه خيراً من سمع ولده. . فأجاب الملك في صوت هادئ رزين:

ـ (كلا! . إني لم أزرع ولم أحصد مثلها في حقلي! . . كما أني لم أشتر شيئاً يشبهها! .

فما كان للنقود تداول في أيامنا . . فكان كل امئ يزرع قمحة . . . وما زاد عن حاجته يهبه من في عوز ! .

لست أدري أين كان يزرع مثل هذا القمح . ولكنني أعتقد أن القمح في عهدنا كان أكبر حجماً وأكثر دقيقاً منه في أيامنا هذه . . . بيد أنه ـ مع ذلك ـ لم يبلغ حجم هذه القمحة . وأحسبك واجداً عند أبي فائدة وعلماً عنها ! فسله) .

فأرسل الملك من يأتي بوالد الشيخ . . فغابوا حيناً ، ثم عادوا به إلى حضرة الملك ! . . يسعى في سيره في خفة ونشاط له بصر ثاقب وسمع مرهف . . . ولسان ينطق في جلاء ! .

فلما مد الملك له يداً بحبة القمح . . . تناولها منه . . . وراح يقلبها في راحتيه . . . ويمعن فيها النظر . . ثم لم يلبث أن ارتفع

صوته في هدوء (لم أر مثل هذه القمحة إلا منذ زمن سحيق . . سحيق جداً! .) وقضم شطراً من الحبة بثناياه، وأخذ يتذوقها بفمه!! واستطرد في قوله :

ـ (إنها نفس النوع! . . .) فسأله الملك :

ـ (ألا حدثنا أيها الجد الوقور . . . في أي مكان وفي أي زمان، كان الناس يزرعون هذا القمح . . . وهلا خبرتنا إن كنت قد ابتعت أو زرعت مثلها في حقولك؟! . .)

فأجابه الشيخ : ـ

كان هذا القمح يزرع في كل البقاع في أيامي لقد طعمته في شبابي، وأطعمت غيري منه! . وطالما زرعناه في أراضينا . . وحصدناه . . . ودرسناه!! .)

فقال الملك وقد استبد به العجب وتملكه الفضول : ـ

(هل كنت تبتاعه؟! أم كنت تزرعه بيديك؟!)

فتريث الشيخ حيناً . . . كأنه يسبر غور الماضي، ويستعيد ذكراه ـ وقد ضرب النسيان عليها سجنه وأرخى دونها سندوله ـ ثم أجابه:

(لم يكن ثمت واحد . . في أيامي . . يجسر على أن يأتي هذه الخطيئة . . أن يبيع أو يشتري الخبز . . ولم نكن ندري شيئاً عن هذه النقود التي تتداولونها الآن . . فكان لكل امرئ كفايته من القمح والزاد! .)

ـ بالله خبرني أين توجد أراضيك حيث كنت تزرع فيها ذلك القمح؟! .)

فتبسم الشيخ وأجابه في هدوء:

ـ (كان حقلي هو (أرض الله) الواسعة . . أينما زرعت وحيثما غرست فهذا حقلي . . . فكانت الأرض مباحة طليقة بين الناس! وما

كنت تجد واحداً يجرؤ على القول بأن هذه الأرض ملكه. . بل العمل هو وحده الذي كان ملكاً للناس):

ـ (هلا أجبتني أيها الجد الكريم. . إلى سؤالين آخرين؟ أولهما: لماذا كانت الأرض تنبت مثل هذا القمح، ثم لماذا كفت عن إخراجه الآن؟!!. .

وثانيهما: ما العلة في أن حفيدك لا يخطو إلا على دعامتين وابنك يتوكأ على عصا واحدة. أما أنت فلا تعتد على شئ؟! وما الذي جعلك ذا بصر ثاقب وسمع مرهف وصوت واضح جلي تهفو الأذن لسماعه؟!)

فهز الشيخ رأسه، وما زالت البسمة مرتسمة على شفتيه وقال:

ـ (لقد صار الأمر إلى هذا الحال. . لأن الناس كفوا عن العيش بما تعمله أيديهم،

وراحوا يسخرون غيرهم لعمل ما تعوزهم الحاجة إليه!.

في أيامنا الخوالي.. كان الناس يعيشون حسب ما سنته لهم شريعة (الله).. (العامل بعمله)!. فلم تملأ الضغائن نفوسهم ولم تفسد الأحقاد قلوبهم.. ولم يكن بينهم من ينظر بعين الحسد إلى ما متع الله به بعضاً منهم!..)

obeikandl.com